

دراسة في الآثار الاجتماعية



أهمّية التقوى في القرآن الكريم

قبل الدخول في الآيات القرآنية التي ركّزت على أهمّية التقوى، لا بأس بالإشارة إلى المراد من التقوى لغة.

التقوى لغة

قال الراغب الإصفهاني في المفردات: «وَقى: الوقاية: حفظ الشيء ممّايؤذيه ويضرّه. يقال: وقيتُ الشيء أقيه وِقاية ووقاءً. قال: (فوقاهم الله، ووقاهم عذاب السعير، وما لهم من الله واقٍ، ما لكَ من الله من وليّ ولا واق، قوا أنفسكم وأهليكم ناراً).

والتقوى: جعل النفس في وقاية ممّا يُخاف، هذا تحقيقه. وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عمّا يؤثِم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات، لما روي: الحلال بيّن والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه»[1].

وقال السيّد حيدر الآملي في تفسيره (المحيط الأعظم):

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الإصفهاني، ص٥٣٠، مادّة «وقى».

«اعلم أنّ للتقوى مراتب ومدارج، وفيها أقوال بحسب الظاهر والباطن.

أمّا قول أهل الظاهر فالتقوى عندهم: عبارة عن الاجتناب عن محارم الله تعالى، والقيام بما أوجبه عليهم من التكاليف الشرعية، والمتّقي هو الذي يتّقي بصالح عمله عذاب الله، وهو مأخوذ من اتّقاء المكروه بما يجعله حاجزاً بينه وبينه، كما يقال: اتّقى السهم بالترس، أي جعله حاجزاً بينه وبين السهم.

وأمّا قول أهل الباطن، فالتقوى عندهم: عبارة عن الاجتناب المذكور مع ما أحلّ الله تعالى عليهم من طيّبات الدنيا ولذّاتها، على حسب طبقاتها ومراتبها إلاّ بقدر الضرورة فضلاً عن الاجتناب عن محارمه»[١].

إلاّ أنّ البحث القرآني، يثبت لنا أنّ المؤمن إذا اتّقى الله في كبائر الذنوب، فإنّ الله تعالى يغفر له الصغائر، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاته ويُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾**[٢]، وقال: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾**[٣].

«والمراد بالتقوى بعد الإيمان، التورّع عن محارم الله واتّقاء

---

(١) تفسير المحيط الأعظم، السيد حيدر الآملي، ج١ ص٢٧٨.

(٢) الطلاق: ٥.

(٣) المائدة: ٦٥.

الذنوب التي تحتم السخط الإلهي وعذاب النار، وهي الشرك بالله وسائر الكبائر الموبقة التي أوعد الله عليها النار، فيكون المراد بالسيئات التي وعد الله سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب، وينطبق على قوله سبحانه:
﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾[١]، فيظهر من الآيتين أنّ المَراد بالمحَارم في قوله (علَيه السلام) في تعريف التقوى: (**إنّها الورع عن محارم الله**) المعاصي الكبيرة»[٢].

بعد أن اتّضح المراد من التقوى لغةً واصطلاحاً، نحاول الوقوف على بعض الحقائق القرآنية التي بيّنت أهمّية هذا الأمر، وقبل الدخول في ذلك لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة.

دور التوحيد

من الأمور الواضحة، أنّ المجتمعات الإنسانية لا يمكن لها تحصيل السعادة، إلاّ من خلال القانون، ولا يمكن للقانون أن يسود إلاّ إذا كان متكئاً على إيمان بالله الواحد الأحد، ولا يمكن لهذا الإيمان أن يترسّخ إلاّ من خلال الأخلاق الكريمة. فالتوحيد هو الأصل الذي تنمو عليه شجرة السعادة الإنسانية، وتتفرّع منها الأخلاق الكريمة، وهذه الفروع هي التي

---

(١) النساء: ٣١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٦ ص٣٧، ج١٩ ص٣١٧.

تثمر ثمراتها الطيّبة في المجتمع الإسلامي. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابتٌ وَفَرْعُهَا في السَّمَاء * تُؤْتي أُكُلَهَا كُلَّ حين بإِذْن رَبِّهَا وَيَضْربُ اللهُ الأَمْثَالَ للنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلمَة خَبيثَة كَشَجَرَة خَبيثَة اجْتُثَّتْ منْ فَوْق الأَرْض مَا لَهَا منْ قَرَار**﴾[1] حيث جعلت الإيمان بالله تعالى كشجرة لها أصل ثابت وهو التوحيد بلا ريب، وأكل تؤتيه كلّ حين بإذن ربّها وهو العمل الصالح، وفرع وهو الخلق الكريم كالعفّة والشجاعة والعدالة والرحمة ونظائرها.

بيان هذه الحقيقة «أنّ الإنسان لا يتمّ كماله الذي من أجله خُلق، ولا يسعد في حياته إلاّ بالاجتماع مع أفراد آخرين يتعاونون على أعمال الحياة، على ما فيها من الكثرة والتنوّع، وليس يقوى الإنسان بمفرده على الإتيان بها جميعاً.

وهذا ما أحوج الإنسان الاجتماعي إلى أن يضع السنن والقوانين، لكي يحفظ بها حقوق الأفراد من الضياع والفساد. ومن المسلّم أنّ هذه السنن والقوانين لا يمكن أن تؤثّر إلاّ بواسطة مجموعة من القوانين الجزائية التي تترتّب على المتخلّفين والمتعدّين على حقوق الآخرين، وتخوّفهم السيّئة قبال السيّئة، وبأُخرى تشوّقهم وترغّبهم في عمل الخيرات. ولا يمكن أن يتحقّق ذلك إلاّ من خلال قوّة حاكمة تحكم في المجتمع بالعدل والصدق.

وإنّما تتحقّق هذه الأُمنية إذا كانت القوّة المنفّذة للقانون:

---

(١) الآيات ٢٤ ـ إلى ٢٦ من سورة إبراهيم.

أوّلاً: عالمة بالجرم.

ثانياً: قادرة على معاقبة المجرم.

أمّا إذا جهلت ووقع الإجرام على جهل منها أو غفلة ـ وكم له من وجود ـ فلا مانع من تحقّق الجرم، والقوانين بنفسها لا أيدي لها تبطش بها. وكذا إذا ضعفت الحكومة بفقد القوّة اللازمة، أو تساهلت في الأمر، فظهر عليها المجرم، أو كان أشدّ قوّة، عند ذلك تضيع القوانين وتفشو التخلّفات والتعدّيات على حقوق الناس.

وتشتدّ البلوى إذا تمركزت هذه القوّة في أيدي الجهاز الحاكم ومن يتولّى أزمّة جميع الأمور، عند ذلك تستضعف الناس وتسلب منهم القدرة على ردّها إلى العدل وتقويمها بالحقّ. والتاريخ مملوء من قصص الجبابرة والطواغيت وتحكّماتهم الجائرة على الناس. وهو ذا نصب أعيننا في أكثر أقطار الأرض.

إذن فالقوانين والسنن وإن كانت عادلة في حدود مفاهيمها، وأحكام الجزاء وإن كانت بالغة في شدّتها، فإنّها لا تجري على رسلها في المجتمع، ولا تسدّ طريق التخلّف عنها. من هنا يأتي دور الأخلاق الفاضلة الإنسانية لتقطع دابر الظلم والفساد، كملكة اتباع الحق واحترام الإنسانية والعدالة والكرامة والحياة ونشر الرحمة ونظائرها. وهذا معناه أنّ السنن والقوانين الاجتماعية لا تأمن التخلّف والضياع إلاّ إذا تأسّست وقامت على أخلاق كريمة إنسانية، واستظهرت بها.

لكن الأخلاق بمفردها لا تفي بإسعاد المجتمع، ولا تسوق الإنسان إلى

صلاح العمل، إلاّ إذا اعتمدت على التوحيد، وهو الإيمان بأنّ للعالم ومنه الإنسان إلهاً واحداً سرمدياً، لا يعزب عن علمه شيء، ولا يُغلب في قدرته عن أحد، خَلَقَ الأشياء على أكمل نظام لا لحاجة منه إليها، وسيعيدهم إليه فيحاسبهم، فيجزي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، ثمّ يخلدون منعَّمين أو معذَّبين.

ومن المعلوم أنّ الأخلاق إذا اعتمدت على هذه العقيدة، لم يبق للإنسان همّ إلاّ مراقبة رضاه تعالى في أعماله، وكانت التقوى رادعاً داخلياً عن ارتكاب الجرم، ولولا ارتضاع الأخلاق من ثدي هذه العقيدة، عقيدة التوحيد لم يبق للإنسان غاية في أعماله الحيوية إلاّ التمتّع بمتاع الدنيا الفانية والتلذّذ بلذائذ الحياة المادّية»[١].

التقوى غاية العبادة

إنّ الله سبحانه خلق الإنسان لأجل عبادته ، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[٢]، لذا أكّد القرآن أنّ من أهمّ أهداف بعثة الأنبياء والمرسلين، الدعوة إلى عبادة الواحد الأحد قال تعالى ﴿**لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[٣]، وقال: ﴿**إِنَّ اللهَ رَبِّي**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١١ ص١٥٥ بتصرّف.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) النحل: ٣٦ .

وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[١].

من الواضح أنّ هذه العبادة ليست هي إلاّ لاستكمال الإنسان بها، وإلاّفإنّه سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة، حتى يستكمل بعبادة أحد وترتفع بها حاجته. وببيان آخر: إنّ العبادة كمال للفعل الذي هو الإنسان، لا كمال للفاعل الذي هو الحقّ سبحانه. قال تعالى: **﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾**[٢].

لكن من جهة أُخرى نجد أنّ القرآن لا يجعل العبادة هي الغاية النهائية لخلق الإنسان، بل يجعلها غاية متوسّطة، ويرتّب عليها غايات أُخرى، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[٣]، حيث جُعلت التقوى هي الغاية والهدف من العبادة التي خُلق الإنسان لأجلها، وهذا معناه أنّ التقوى هي الكمال المطلوب للإنسان، والعبادة هي التي تهيّئ الأرضية للوصول إلى هذا الكمال.

قال الرازي في ظل هذه الآية:

> «العبادة فعل يحصل به التقوى، لأنّ الاتّقاء هو الاحتراز عن المضارّ، والعبادة فعل المأمور به، ونفس هذا الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضار، بل يوجب الاحتراز، فكأنّه تعالى قال: اعبدوا ربّكم لتحترزوا به عن عقابه. وإذا قيل

---

(١) مريم: ٣٦.

(٢) إبراهيم: ٨ .

(٣) البقرة: ٢١ .

في نفس الفعل أنّه اتّقاء، فذلك مجاز، لأنّ الاتّقاء غير ما يحصل به الاتّقاء، لكن لاتّصال أحد الأمرين بالآخر أجرى اسمه عليه»[(١)].

لكن مع هذا لا يمكن أن تكون التقوى هي الهدف النهائي والغاية القصوى من خلق الإنسان؛ لما تقدّم بيانه أنّ التقوى إنّما هي زاد المسير إلى لقاء الله تعالى والقرب منه، ولا يمكن لما هو زاد السفر أن يكون هو الهدف. إن الهدف النهائي والغاية الأخيرة من العبادة والتقوى ، هو الوصول إلى لقاء الله تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾[(٢)].

لذا نجد القرآن الكريم يعبِّر عن أولئك الذين كفروا بلقاء ربّهم أنّهمالأخسرون أعمالاً؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً**﴾[(٣)].

فإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى مقام لقاء الله تعالى، ولا يتحقّق ذلك إلاّ من خلال العبادة والتقوى، فقد انتهى إلى الفلاح الحقيقي؛ قال تعالى:

---

(١) التفسير الكبير ، ج٢ ص١٠١ .

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١] حيث جعل الغاية من التقوى، الوصول إلى الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢]، وعرّف المفلحين في آيات عديدة، بأنّ لهم الخيرات، وأنّهم ثقلت موازينهم ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

من هنا نقف على السبب الحقيقي وراء جعل التقوى هي الملاك في الكرامة الحقيقية عند الله؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَر وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٤] لأنّ التقوى هي التي تؤدّي بالإنسان إلى سعادته الحقيقية وحياته الطيّبة الأبدية في جوار ربّ العزّة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَنَهَر * فِي مَقْعَدِ صِدْق عِنْدَ مَلِيك مُقْتَدِر﴾[٥]، وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَة مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَل وَعُيُون * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٧]، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً *

---

(١) آل عمران: ٢٠٠ .

(٢) الشمس: ٩ ـ ١٠ .

(٣) الأعراف: ٨ .

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) القمر: ٥٤ ـ ٥٥.

(٦) آل عمران: ١٣٣.

(٧) المرسلات: ٤١ ـ ٤٤.

جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾[١]، بل هي الوسيلة لوصول الإنسان إلى بركات السماء والأرض: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٢].

«والله وليّ المتّقين»[٣]

ذكر القرآن في مواضع عديدة، أنّ الله يحبّ العدل والإحسان والصبر والثبات والتوكّل والتوبة والتطهّر ونحوها.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٤].

وقال: ﴿**وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾[٥].

وقال: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[٦].

وقال: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[٧].

وقال: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[١].

---

(١) النبأ: ٣١ ـ ٣٦.

(٢) الأعراف: ٩٦ .

(٣) الجاثية: ١٩.

(٤) البقرة: ١٩٥.

(٥) آل عمران: ١٤٦.

(٦) الصف: ٤.

(٧) آل عمران: ١٥٩.

من الأمور المحبوبة له أيضاً التقوى، قال تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[٢].

ومعنى محبّة الله تعالى لعبده، كما ذكره بعض العارفين هو

«كشف الحجاب عن قلب العبد وتمكينه من أن يطأ على بساط قربه، فإنّ ما يوصف به سبحانه إنّما يؤخذ باعتبار الغايات لا باعتبار المبادئ، وعلامة حبّه سبحانه للعبد، توفيقه للتجافي عن دار الغرور، والترقّي إلى عالم النور، والأُنس بالله، والوحشة ممّا سواه، وصيرورة جميع الهموم همّاً واحداً»[٣].

وإذا أحبّ الله عبداً تولّى أمره، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[٤]. عند ذلك تظهر على العبد آثار الولاية الإلهية. قال تعالى: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٥].

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) آل عمران: ٧٦.

(٣) شرح جامع لأصول الكافي والروضة، محمد صالح المازندراني، ج٩ ص٣٩٩، من منشورات المكتبة الإسلامية، طهران.

(٤) الجاثية: ١٩.

(٥) يونس: ٦٢ ـ ٦٤.

افتتحت هذه الآيات الثلاث بلفظة «ألا» التنبيهية، للإشارة إلى أهمّية ما تريد بيانه، حيث ذكرت أولياء الله ووصفت آثار ولايتهم، وما يختصّون به عند الله تعالى.

«والولاية وإن ذكر لها معان كثيرة، لكن الأصل في معناها: ارتفاع الواسطة الحائلة بين الشيئين، بحيث لا يكون بينهما ما ليس منهما، ثمّ استعيرت لقرب الشيء من الشيء بوجه من وجوه القرب، كالقرب نسباً أو مكاناً أو منزلة أو بصداقة أو غير ذلك، ولذلك يطلق الولي على كلّ من طرفي الولاية، وخاصّة بالنظر إلى أنّ كلاً منهما يلي من الآخر ما لا يليه غيره، فالله سبحانه وليّ عبده، لأنّه يلي أمره ويدبّر شأنه، فيهديه إلى صراطه المستقيم ، ويأمره وينهاه فيما ينبغي له أو لا ينبغي، وينصره في الحياة الدنيا والآخرة ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾[١].

والمؤمن حقّاً ولي ربّه، لأنّه يلي منه إطاعته في أمره ونهيه، ويلي منه عامّة البركات المعنوية من هداية وتوفيق وتأييد وتسديد وما يعقبها من الإكرام بالجنّه والرضوان، فأولياء الله ـ على أيّ حال هم المؤمنون، فإنّ الله يعدّ نفسه وليّاً لهم في حياتهم المعنوية حيث يقول: ﴿**وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢].

---

(١) غافر: ٥٢.

(٢) آل عمران: ٦٨.

غير أنّ الآية التالية لهذه الآية المفسِّرة للكلمة، تأبى أن تكون الولاية شاملة لجميع المؤمنين، وفيهم أمثال الذين يقول الله سبحانه فيهم ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[1]. فإنّ قوله في الآية التالية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[2] يعرّفهم بالإيمان والتقوى، مع الدلالة على كونهم على تقوى مستمرة سابق على إيمانهم من حيث الزمان، حيث قيل (آمنوا) ثمّ عطف عليه (وكانوا يتّقون) فدلّ على أنّهم كانوا يستمرّون على التقوى قبل تحقّق هذا الإيمان منهم، ومن المعلوم أنّ الإيمان الابتدائي غير مسبوق بالتقوى، بل هما متقاربان أو هو قبل التقوى وخاصّة التقوى المستمرّة.

والحاصل أنّ المراد من الإيمان في قوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ ليس هو مطلق درجاته، بل تلك المرتبة منه التي يسلّم فيها العبد لربّه حقيقة معنى ألوهيته، وينقطع عنه السخط والاعتراض، فلا يسخط لشيء من أمره من قضاء وقدر وحكم، ولا يعترض على شيء من إرادته، وهذا هو الإيمان الكامل الذي تتمّ به للعبد عبوديته، قال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾[3].

على أنّ توصيفه تعالى هؤلاء بأنّهم ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ**

---

(١) يوسف: ١٠٦ .

(٢) يونس: ٦٣.

(٣) النساء: ٦٥ .

يَحْزَنُونَ﴾[١] يدلّ على أنّ المراد منه الدرجة العالية من الإيمان الذي يتمّ معه معنى العبودية والمملوكية المحضة للعبد الذي يرى معه أنّ المُلك لله وحده لا شريك له، وأن ليس إليه من الأمر شيء حتّى يخاف فوته أو يحزن لفقده.

وذلك أنّ الخوف إنّما يعرض للنفس عن توقّع ضرر يعود إليها، والحزن إنّما يطرأ عليها لفقد ما تحبّه أو تحقّق ما تكرهه ممّا يعود إليها نفعه أو ضرره، ولا يستقيم تحقّق ذلك إلاّ فيما يرى لنفسه ملكاً أو حقّاً متعلّقاً بما يخاف عليه أو يحزن لفقده، من ولد أو مال أو جاه أو غير ذلك، وأمّا ما لا علقة للإنسان به بوجه من الوجوه أصلاً، فلا يخاف الإنسان عليه ولا يحزن لفقده.

والذي يرى كلّ شيء ملكاً طلقاً لله سبحانه، لا يشاركه في ملكه أحد، لا يرى لنفسه ملكاً أو حقّاً بالنَسبة إلى شيء، حتّى يخاف في أمره أو يحزن، وهذا هو الذي يصفه الله من أوليائه يقول: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٢] فهؤلاء لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلاّ أن يشاء الله، وقد شاء أن يخافوا من ربّهم وأن يحزنوا لما فاتهم من كرامته إن فاتهم، وهذا كلّه من التسليم لله فافهم ذلك. قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ**

---

(١) يونس: ٦٣.

(٢) يونس: ٦٣.

اللهَ وكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾[١].

وقال: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[٢]. وقال أيضاً: ﴿**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾[٣].

فإطلاق الآية يفيد اتصافهم بهذين الوصفين، عدم الخوف وعدم الحزن في النشأتين الدنيا والآخرة، فتكون نظير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[٤].

وليس معنى ارتفاع الخوف من غير الله والحزن عن الأولياء أنّ الخير والشرّ والنفع والضرر والنجاة والهلاك والراحة والعناء واللذّة والألم والنعمة والبلاء، متساوية عندهم ومتشابهة في إدراكهم، فإنّ العقل الإنساني بل الشعور العام الحيواني لا يقبل ذلك.

بل معناه أنّهم لا يرون لغيره تعالى استقلالاً في التأثير أصلاً، ويقصرون الملك والحكم فيه تعالى، فلا يخافون إلاّ إيّاه أو ما يحبّ الله ويريد أن

---

(١) الأحزاب: ٣٩ .

(٢) آل عمران: ١٧٣.

(٣) التوبة: ٩٢ .

(٤) فصّلت: ٣٠ ـ ٣١ .

يحذروا منه أو يحزنوا عليه»[١].

لذا نجد القرآن يشير إلى أنّ هؤلاء على حذر في موارد عديدة. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٢].

وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٣].

بعض الآثار

وإذا تولّى الله عبده، يخرجه من الظلمات إلى النور ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٤]. عند ذلك لا يستوي حال هذا العبد مع حال غيره من الناس الذين لم يرزقوا ذلك النور ، قال تعالى : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[٥]. أمّا هذا العبد المؤمن الذي شملته الولاية الإلهية، فإنّ له نوراً يمشي به في الناس، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٠ ص٨٨ .

(٢) الزمر: ٩.

(٣) البقرة: ٢٣٥.

(٤) البقرة: ٢٥٧.

(٥) النور: ٤٠.

يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[١].

فإذا وصل العبد إلى هذا المقام، يكون نظره بنور الله «فيرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لايسمعونه، ويعقل ما لا يعقلونه، ويريد ما لا يريدونه، وإن كانت ظواهر أعماله وصور حركاته وسكناته تحاكي أعمال غيره وحركاتهم وسكناتهم وتشابهها، فله شعور وإرادة فوق ما لغيره من الشعور والإرادة، فعنده من الحياة التي هي منشأ الشعور والإرادة، ما ليس عند غيره من الناس، فللمؤمن (المتّقي حقيقة) مرتبة من الحياة ليست عند غيره.

فكما أنّ عموم الناس يشاركون سائر الحيوان في الشعور بواجبات الحياة والحركة الإرادية، ويشاركها الحيوان، لكنّ مع ذلك لا نشكّ أنّ الإنسان نوع أرقى من سائر الأنواع الحيوانية، وله حياة فوق الحياة التي فيها، لما نرى في الإنسان آثاره العجيبة المترشّحة من أفكاره الكلّية وتعقّلاته المختصّة به، ولذلك نحكم في الحيوان إذا قسناه إلى النبات، وفي النبات إذا قسناه إلى ما قبله من مراتب الوجود، أنّ لكلّ منها درجة أعلى وحياة هي أرقى من حياة ما قبله.

كذلك الإنسان الذي أُوتي العلم والإيمان واستقرّ في دار الإيقان، واشتغل بربّه، وفرغ واستراح من غيره، وهو يشعر بما ليس في وسع غيره، ويريد ما لا يناله سواه، إنّ له حياة فوق حياة غيره، ونوراً يستمدّ به في شعوره، وإرادة لا توجد إلاّ معه وفي ظرف حياته»[٢].

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) الميزان، مصدر سابق، ج٧ ص٣٣٧.

لذا نجد أنّ القرآن عندما يأتي إلى أولئك الذين تولاّهم الشيطان، فأخرجهم من النور إلى الظلمات ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾[1]، يقول عنهم: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[2]. فيثبت لهم أمثال القلوب والأعين والآذان التي في المؤمنين، لكنّه ينفي كمال آثارها التي في المؤمنين.

ولعلّ هذا هو مراد الحديث القدسي الوارد عن النبي (صلّى الله عليه وآله) من طرق الفريقين حيث قال: «وإنّه (العبد) ليتقرّب إليَّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها. إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته»[3].

وقيل في معناه:

> «إنّه لا يسمع إلاّ بحقّ وإلى حقّ، ولا ينظر إلاّ بحقّ وإلى حقّ، ولا يبطش إلا بإذن الحقّ، ولا يمشي إلاّ إلى ما يرضى به الحقّ، وهو المؤمن حقّاً، الذي راح عنه كلّ باطل، وصار واقفاً مع الحقّ»[4].

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الأصول من الكافي، ج٢ ص٣٥٢، كتاب الإيمان والكفر، باب من آذى المسلمين واحتقرهم، الحديث: ٧.

(٤) شرح جامع لأصول الكافي والروضة، مصدر سابق، ج٩ ص٤٠١.

فتحصّل إلى هنا أنّ الإنسان يصل بالتقوى إلى مقام يكون محبوباً لله سبحانه وتعالى، وإذا أحبّ الله عبداً تولاّه، وإذا تولاّه كان آمناً من الخوف والحزن والفزع، و أنّ مثل هذا العبد ـ كما تقول الروايات يكون في حصن الله.

عن الإمام الرضا عن آبائه (عليهم السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال:

سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول:
سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله عزّوجلّ يقول:
لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»(١).

من الواضح أنّ ذلك لا يتحقّق إلاّ بشروطها، وهي كما ورد في جملة من الروايات: الإيمان بالإمامة الخاصّة لأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) والطاعة والتسليم لهم، لذا ورد في ظل الرواية:

«فلما مرّت الراحلة، نادانا: **بشروطها، وأنا من شروطها».**

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال:

«من قال: لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنّة، وإخلاصها أن تحجزه لا إله إلاّ الله عمّا حرّم الله عزّوجلّ»(٢).

---

(١) التوحيد: الشيخ الصدوق؛ ص٢٥، باب ثواب الموحّدين، الحديث: ٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧، الحديث: ٢٦.

وكيفما كان فإذا صار العبد في حصن الله تعالى، فسيكون في مأمن من سهام إبليس وإغوائه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾(١) والطائف من الشيطان هو الذي يطوف حول القلب ليلقي إليه الوسوسة.

والآية بمنزلة التعليل للأمر بالاستعاذة الواردة في الآية السابقة: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(٢).

والنزغ كما قال الراغب في المفردات: «دخول في أمر لأجل إفساده، قال تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**﴾، وقيل: هو من الشيطان أدنى الوسوسة.

وعلى هذا يكون معنى الآية:

> «استعذ بالله عند نزغة الشيطان، فإنّ هذا هو طريق المتّقين، فهم إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا أنّ الله هو ربّهم الذي يملكهم ويربيهم ويرجع إليه أمرهم، فأرجعوا إليه الأمر، فكفاهم مؤنته، ودفع عنهم كيده، ورفع عنهم حجاب الغفلة، فإذا هم مبصرون غير مضروب على أبصارهم بحجاب الغفلة»(٣).

فتكون هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) الأعراف: ٢٠٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٨ ص٣٨١.

إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[١].

بهذا يتّضح معنى الرحمة الخاصّة التي وعدها الله المتّقين من عباده **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾**[٢]، فإنّ هناك «رحمة إلهية عامّة يتنعّم بها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر وذو الشعور وغير ذي الشعور، فيوجدون بها ويرزقون بها في أوّل وجودهم، ثمّ في مسيرة الوجود ما داموا سالكين سبيل البقاء. ورحمة إلهية خاصّة وهي العطية الهنيئة التي يجود بها الله سبحانه في مقابل الإيمان والعبودية، وتختصّ لا محالة بالمؤمنين الصالحين من عباده، من حياة طيّبة نورانيّة في الدنيا، وجنّة ورضوان في الآخرة، ولا نصيب فيها للكافرين والمجرمين.

ويقابل الرحمة الخاصّة عذاب وهو الذي يصيب الكافرين والمجرمين من جهة كفرهم وجرمهم في الدنيا، كعذاب الاستئصال والمعيشة الضنك، وفي الآخرة من النار وآلامها، ولا يقابل الرحمة العامّة شيء من العذاب، إذ كلّ ما يصدق عليه اسم شيء فهو من مصاديق الرحمة العامّة لنفسه أو لغيره وكونه رحمة هي المقصودة في الخلقة، وليس وراء الشيء شيء»[٣].

بهذا يتّضح لماذا كان الأنبياء جميعاً يحثّون أممهم على التقوى.

* **﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾**[٤].

---

(١) الحجر: ٤٢.

(٢) الأعراف: ١٥٦.

(٣) الميزان، مصدر سابق، ج٨ ص٢٧٤ .

(٤) الشعراء: ١٠٦.

* ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾[١].

* ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾[٢]

* ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾[٣].

* ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾[٤].

* ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾[٥].

---

(١) الشعراء: ١٢٤.

(٢) الشعراء: ١٤٣.

(٣) الشعراء: ١٦١.

(٤) الشعراء: ١٧٧.

(٥) الصافات: ١٢٤.

مراتب التقوى

من الحقائق التي أشار إليها القرآن الكريم، أنّ التقوى لها مراتب متعدّدة، قال تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾[1].

وذلك معناه أنّ للتقوى مرتبة هي حقّ التقوى، وأنّ هناك مراتب دون هذه المرتبة، قال في الميزان: «إذا أخذ التقوى حقّ التقوى، كان محض العبودية التي لا تشوبها إنية وغفلة، وهي الطاعة من غير معصية، والشكر من غير كفر، والذكر من غير نسيان. وهذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[2].

فإنّ هذه الآية تعني أن لا تذروا التقوى في شيء ممّا تستطيعونه. غير أنّ الاستطاعة تختلف باختلاف قوى الأشخاص وأفهامهم وهممهم. ولا ريب أنّ حقّ التقوى بالمعنى الذي ذكرناه، ليس في وسع كثير من الناس، فإنّ في هذا المسير الباطني مواقف ومعاهد ومخاطر لا يعقلها إلاّ العالمون،

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) التغابن: ١٦.

ودقائق ولطائف لا يتنبّه لها إلاّ المخلصون. فرُبّ مرحلة من مراحل التقوى لا يصدّق الفهم العامّي بكونها ممّا تستطيعه النفس الإنسانية، فيجزم بكونها غير مستطاعة، وإن كان أهل التقوى الحقّة خلّفوها وراء ظهورهم، وأقبلوا بهممهم على ما هو أشقّ وأصعب.

فمحصل الآيتين ﴿**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ و﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ أن يندب جميع الناس ويدعوا إلى حقّ التقوى، ثمّ يؤمروا بالسير إلى هذا المقصد ما قدروا واستطاعوا. وينتج ذلك أن يقع الجميع في صراط التقوى إلاّ أنّهم في مراحل مختلفة، وعلى درجات متفاوتة، على طبق ما عندهم من الأفهام والهمم، وعلى ما يفاض عليهم من توفيق الله وتأييده وتسديده، فهذا ما يعطيه التدبّر في معنى الآيتين. حيث تدعو الأولى إلى المقصد والثانية تبيّن كيفية السلوك»[١].

ممّا تقدّم يتّضح أنّ التقوى ليست مقاماً دينياً خاصّاً، بل هي حالة روحية تجامع جميع المقامات المعنوية، أي أنّ لكلّ مقام معنوي تقوى خاصّة تختصّ به. وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض مراتب عباده، وذكر لكلّ مرتبة نوعاً من العلم والمعرفة والعمل، لا يوجد في المرتبة الأخرى. فمثلاً ذكر الموقنين وخصّ بهم مشاهدة ملكوت السموات والأرض ، حيث قال: ﴿**وكَذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[٢].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٣ ص٣٦٧. بتصرّف.

(٢) الأنعام: ٧٥.

وذكر المنيبين وخصّ بهم التذكّر، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ**﴾[١]. وذكر العالمين، وخصّ بهم أنّهم يعقلون الأمثال القرآنية، قال تعالى:﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾[٢] وكأنّهم هم أولو الألباب والمتدبّرون، لقوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا**﴾[٣].

وأشار إلى المطهّرين ، وخصّ بهم العلم بتأويل القرآن وباطنه، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَاب مَكْنُون * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾[٤].

وذكر الأولياء وهم أهل الوله والمحبّة لله، وخصّ بهم أنّهم لا يلتفتون إلى شيء إلاّ الله سبحانه، ولذلك لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء، قال تعالى: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٥].

وهكذا بالنسبة إلى المقرّبين والمخبتين والصدِّيقين والصالحين والمؤمنين، حيث أشار إلى خواصّهم ومراتبهم.

لذا قال إمام المتّقين علي أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد أن ذكر «**أنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طُعمه بقُرصيه**» قال: «**ألا وإنّكم لا**

---

(١) غافر: ١٣.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

(٣) محمّد: ٤.

(٤) الواقعة: ٧٩.

(٥) يونس: ٦٢ .

تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد»[١].

وقد أشار بعض أهل المعرفة إلى أنّ للتقوى عشر مراتب:

الأولى: الاجتناب عن محارم الله تعالى، والقيام بما أوجبه عليهم من التكاليف الشرعية.

الثانية: الاجتناب المذكور مضافاً إلى المحلّلات الشرعية إلاّ بقدر الضرورة. وهذا ما أشار إليه سيّد العارفين علي أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث قال: **«ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أوَ أبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى، وأكبادٌ حرّى، أو أكون كما قال القائل:**

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة   وحولك أكبادٌ تحنّ إلى القدِّ

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها...»[٢].

الثالثة: عن الرياء مع الإخلاص.

الرابعة: عن الكثرة مع الوحدة.

الخامسة: عن التفرقة مع الجمعة.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم: ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

السادسة: عن الشكّ مع اليقين.

السابعة: عن الشرك مع التوحيد.

الثامنة: عن الوقوف مع ظواهر القرآن دون بواطنه.

التاسعة: عن رؤية النفس مع مشاهدة الربّ.

العاشرة: عن مشاهدات الوجودات المقيّدة مع الوجود المطلق، أعني عن مشاهدة وجود الخلق مع وجود الحقّ»[١].

هذه المراتب العشر، ترتبط بمقامات السلوك العشرة التي هي: البدايات، والأبواب، والمعاملات، والأخلاق، والأصول، والأودية، والأحوال، والولايات، والحقائق، والنهايات. وتفصيل الحديث عن هذه المراتب وتلك المقامات موكول إلى دراسة أخرى أعمق وأكثر تفصيلاً، إن شاء الله تعالى.

طبقات الناس

لكن ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه، فإنّنا إذا نظرنا نظر التدبّرإلى خصوصيات الشريعة الإسلامية، بل جميع الملل الإلهية، وجدنا أنّ المقصود فيها، هو صرف وجه الإنسان إلى ما وراء هذه النشأة الطبيعية والمادية. والناس من حيث درجات الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، والإعراض عن هذه النشأة الدنيوية، على ثلاث طبقات:

---

(١) تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم: السيّد حيدر الآملي، ج١ ص٢٨٣، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: السيّد محسن الموسوي التبريزي.

«الطبقة الأولى: إنسان تام الاستعداد، يمكنه الانقطاع قلباًعن هذه النشأة، مع تمام الإيقان باللازم من المعارف الإلهية، والتخلّص إلى الحقّ سبحانه وهذا هو الذي يمكنه شهود ما وراء هذه النشأة المادّية، والإشراف على الأنوار الإلهية، كالأنبياء عليهم السلام»[١].

وهؤلاء هم الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[٢]. والظاهر أنّ المراد رؤيتها قبل يوم القيامة، رؤية البصيرة، وهي رؤية القلب، على ما يشير إليه قوله تعالى: **﴿وكَذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ ولِيَكُونَ منَ الْمُوقِنِينَ﴾**[٣]. وهذه هي طبقة المقرّبين.

«الطبقة الثانية: إنسان تامّ الإيقان، غير تام الانقطاع من جهة ورود هيئات نفسانية وإذعانات قاصرة، تؤيسه أن يذعن بإمكان التخلّص إلى ما وراء هذه النشأة المادّية، وهو فيها . فهذه طبقة تعبد الله كأنّها تراه، فهي تعبد عن صدق من غير لعب، لكن من وراء حجاب إيماناً بالغيب، وهم المحسنون في عملهم. وقد سُئل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن الإحسان، فقال: **«أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»**[٤].

---

(١) رسالة الولاية، العلاّمة الطباطبائي، ص١٧.

(٢) التكاثر: ٥ ـ ٧.

(٣) الأنعام: ٧٥.

(٤) رسالة الولاية، ص١٨.

والفرق بين هذه الطبقة وسابقتها، فرق ما بين «إنّ» و«كأنّ». وهذا مقام الخلّص من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله). عن إسحاق بن عمّار، قال: سمعت أبا عبدالله الصادق (عليه السلام) يقول: **إنّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق برأسه**[1] **مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه.**

فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله): **كيف أصبحت يا فلان؟**

قال: أصبحت يا رسول الله مؤمناً موقناً.

فعجب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من قوله (فقد أخبر بشيء نادر الوقوع) وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما هي حقيقة يقينك؟

فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي، وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، وعلى الأرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار، وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار، يدور في مسامعي.

فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لأصحابه، **هذا عبدٌ نوّر اللّه قلبه بالإيمان، ثمّ قال له: الزم ما أنت عليه.**

---

(١) يقال خفق رأسه إذا أخذته سِنة من النعاس، فمال رأسه دون سائر جسده.

فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن اُرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي (صلّى الله عليه وآله) فاستشهد بعد تسعة نفر، وكان هو العاشر»[1].

وهذه الطبقة هم الذين وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته المعروفة بخطبة همّام، حيث قال: **«فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نُزّلت أنفسهم منهم في البلاء، كالتي نُزِّلت في الرخاء. ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طَرفة عين، شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذَّبون.**

قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة. صبروا أيّاماً قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة، يسّرها لهم ربّهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم فَفَدَوا أنفسهم منها.

أمّا الليل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلاً، يحزّنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم»[2].

---

(١) الأصول من الكافي: كتاب الإيمان والكفر، ج٢ ص٥٣، ح٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٣.

«الطبقة الثالثة: غير أهل الطبقتين الأوليين من سائر الناس وعامّتهم. وهذه الطائفة باستثناء المعاند والمكابر والجاحد، طائفة يمكنها الاعتقاد بالعقائد الحقّة الراجعة إلى المبدأ والمعاد، والجريان عملاً على طبقها في الجملة لا بالجملة. وذلك من جهة الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى وحبّ الدنيا، فإنّ حبّ الدنيا وزخارفها يوجب الاشتغال بها، وكونها هي المقصودة من حركات الإنسان وسكناته. وذلك يوجب انصراف النفس إليها، وقصر الهمّة عليها، والغفلة عمّا وراءها، وعمّا توجبه الاعتقادات الحقّة من الأحوال والأعمال، وذلك يوجب ركودها ووقوفها ـ أعني الاعتقادات الحقّة ـ على حالها، من غير تأثير لها وفعلية للوازمها، وجمود الأعمال والمجاهدات البدنية على ظاهر نفسها وأجسادها، من غير سريان أحوالها وأحكامها إلى القلب، وفعلية لوازمها، وهذا من الوضوح بمكان.

مثال ذلك: أنّنا لو حضرنا عند ملك من الملوك، وجدنا من تغيّر حالنا وسراية ذلك إلى أعمالنا البدنية، من حضور القلب والخشوع والخضوع ما لا نجده في الصلاة البتة، وقد حضرنا فيها عند ربّ العالمين. ولو أشرف على شخصنا ملك من الملوك، وجدنا ما لا نجده في أنفسنا، ونحن نعتقد أنّ الله سبحانه يرى ويسمع، وأنّه أقرب إلينا من حبل الوريد، ونعتمد على الأسباب العادية التي تخطئ وتصيب، اعتماداً لا نجد شيئاً منه في أنفسنا، ونحن نعتقد أنّ الأمر بيد الله سبحانه، يفعل ما يشاء ويحكم مايريد. ونركن إلى وعد إنسان أو عمل سبب، ما لا نركن جزءاً من ألف جزء منه إلى مواعيد الله سبحانه، فيما بعد الموت والحشر والنشر، وأمثال هذه التناقضات لا تحصى في اعتقاداتنا وأعمالنا، وكلّ ذلك من جهة الركون إلى الدنيا.

وهذه الطائفة لا يمكنها الانقطاع إلى الله سبحانه، أزيد من الاعتقادات الحقّة الإجمالية، ونفس أجساد الأعمال البدنية التي توجب توجّهاً ما وقصداً ما في الجملة إلى المبدأ سبحانه في العبادات.

ومن هنا يتبيّن أنّ تربية الطبقات الثلاثة، ليس على حدّ سواء، بل هناك أمور مشتركة ومختصّة، فالمشتركة هي الأحكام النظرية والعملية العامّة، التي لا يمكن إهمالها بالنسبة إلى طبقة من الطبقات، من الواجبات والمحرّمات. أمّا المختصّة، فهي التي توجد في الأولى مثلاً، ولا توجد في الثالثة، فربّ مباح أو مستحبّ أو مكروه بالنسبة إلى الثالثة، هو واجب أو محرّم بالنسبة إلى الأولى، فحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين. من هنا فإنّ هذه الطبقة تختصّ بأمور وأحكام غير موجودة في الثانية والثالثة، ولا غير هذه الطبقة تكاد تفهم شيئاً من تلك المختصّات ولا يهتدي إلى طريق تعليمها. وذلك كلّه لمكان ميز طبقتهم وأساسها المحبّة الإلهية دون محبّة النفس، فالفرق بينها وبين الآخريْن في نحو العلم والإدراك، دون قوّته وضعفه وتأثيره وعدمه»[١].

---

(١) رسالة الولاية، ص١٨.

آثار التقوى في الدنيا

يعتقد بعض الناس أنّ أثر التقوى إنّما يظهر في الحياة الآخرة فحسب، ولا يشمل الحياة الدنيا، فمن أطاع الله سبحانه وانتهى عن معاصيه، فسوق يُثاب في الآخرة، جنّات تجري من تحتها الأنهار، ومن لم يتّق الله ، وتجاوز حدوده في هذه النشأة، فإنّه سيعاقب في النشأة الأخرى، بنار أحاط بهم سرادقها، وإلاّ فلا فرق في هذه النشأة بين المتّقين والفجّار.

لكن هذه النظرة للتقوى تخالف بوضوح ما يطرحه القرآن الكريم؛ ذلك أنّ القرآن لم يخصّص أثر التقوى على الإنسان في النشأة الآخرة، ومن حيث الثواب والعقاب الأُخروي فقط بل عمّم أثرها لكلتا النشأتين، وفي الذكر الحكيم آيات كثيرة تشير إلى أنّ المتّقين والفجّار ليسوا سواءً، كقوله تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا**

(١) ص: ٢٨.

يَحْكُمُونَ﴾[1]، حيث نجد أنّ الآية تستنكر حسبان وظنّ الذين يكتسبون السيئات، أن يكونوا مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء في محياهم ومماتهم، أي تكون حياة هؤلاء كحياة أولئك، وموتهم كموتهم، فيكون الإيمان والعمل الصالح لغواً لا أثر له في حياة ولا موت، ويستوي وجوده وعدمه، لذا قالت الآية ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُون﴾ ردّاً لحسبانهم المذكور وحكمهم بالمماثلة بين مجترحي السيئات، والذين آمنوا وعملوا الصالحات. فالفريقان لا يتساويان في الحياة ولا في الممات.

أمّا أنّهما لا يتساويان في الحياة، فلأنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، في سلوكهم مسلك الحياة، على بصيرة من أمرهم، وهدىً ورحمة من ربّهم، كما ذكره الله سبحانه في قوله تعالى: **﴿هذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْم يُوقِنُونَ﴾**[2]، والمسيء صفر الكفّ من ذلك، حيث قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾**[3].

وأمّا أنّهما لا يتساويان في الممات، فلأنّ الموت، كما تنطق به البراهين الساطعة ليس انعداماً للشيء، وبطلاناً للنفس الإنسانية، كما يحسبه المبطلون، بل هو رجوع إلى الله سبحانه، وانتقال من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة، التي هي دار البقاء وعالم الخلود، يعيش فيها المؤمن الصالح في سعادة ونعمة، وغيره في شقاء وعذاب.

---

(١) الجاثية: ٢١.

(٢) الجاثية: ٢٠.

(٣) طه : ١٢٤.

وقد أشار القرآن الكريم إلى جملة من الآثار الأساسية التي تترتّب على التقوى في الحياة الدنيا، نقف على بعضها إجمالاً:

الحياة الطيّبة

قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَر أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[١]. فحياة المؤمن ليست حياة طيّبة في الدار الآخرة فحسب، بل هي كذلك في هذه النشأة أيضاً. قال الطباطبائي في ظل هذه الآية: «الإحياء: إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه، فالجملة بلفظها دالّة على أنّ الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحاً بحياة جديدة، غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامّة، فالآية نظيرة قوله: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾[٢]، فإنّ المراد بهذا النور، العلم الذي يهتدي به الإنسان إلى الحقّ في الاعتقاد والعمل.

وكما أنّ له من العلم والإدراك ما ليس لغيره، كذلك له من موهبة القدرة على إحياء الحقّ وإماطة الباطل ما ليس لغيره، وقد قال سبحانه: ﴿**وكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣].

وهذا العلم والقدرة الحاصلان له بالتقوى، يمهّدان له أن يرى الأشياء

---

(١) النحل: ٩٧.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) الروم: ٤٧.

على ما هي عليها، فيقسّمها إلى قسمين: حقّ باق وباطل فان، فيعرض بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحياة الدنيا، بزخارفها الغارّة الفتّانة، ويعتزّ بعزّة الله، فلا يستذله الشيطان بوساوسه، ولا النفس بأهوائها وهوساتها، ولا الدنيا بزهرتها، لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها.

ويتعلّق قلبه بربّه الذي هو يحقّ كلّ حقّ بكلماته، فلا يريد إلاّ وجهه، ولا يحب إلاّ قربه، ولا يخاف إلاّ سخطه وبُعده، يرى لنفسه حياة طاهرة دائمة مخلّدة، لا يدبّر أمرها إلاّ ربّه الغفور الودود، ولا يواجهها في طول مسيرها إلاّ الحسن الجميل، فقد أحسن كلّ شيء خلقه، ولا قبيح إلاّ ما قبّحه الله من معصيته.

فهذه آثار حيوية لا تترتّب إلاّ على حياة حقيقية غير مجازية، وقد رتّبها الله سبحانه على هذه الحياة التي يذكرها ويخصّها بالذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهي حياة حقيقية جديدة،يفيضها الله سبحانه عليهم. وليست هذه الحقيقة الجديدة المختصّة، بمنفصلة عن الحياة القديمة المشتركة، وإن كانت غيرها، فإنّما الاختلاف بالمراتب لا بالعدد، فلا يتعدّد بها الإنسان، كما أنّ الروح القدسية التي يذكرها الله سبحانه للأنبياء، لا توجب لهم إلاّ ارتفاع الدرجة، دون تعدّد الشخصية»[(١)].

وهذه هي الروح التي أشارت إليها آية سورة المجادلة حيث قال تعالى: ﴿**أُولـئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾[(٢)]، ومن الواضح

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٢ ص٣٤١.

(٢) المجادلة: ٢٢.

أنّ ظاهر هذه الآية يفيد أنّ للمؤمنين وراء الروح البشرية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، روحاً أخرى تفيض عليهم حياة أخرى، تصاحبها قدرة وعلم، لا يوجدان عند غير المؤمن.

هذه الحقيقة أكّدتها جملة من الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام). عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) قال: في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح البدن، وروح القدس، وروح القوّة، وروح الشهوة، وروح الإيمان. وفي المؤمنين أربعة؛ أفقدها روح القدس: روح البدن، وروح القوّة، وروح الشهوة، وروح الإيمان. وفي الكفّار ثلاثة أرواح: روح البدن، وروح القوّة، وروح الشهوة.

ثمّ قال (عليه السلام) : روح الإيمان يلازم الجسد، ما لم يعمل بكبيرة، فإذا عمل بكبيرة فارقه الروح، وروح القدس من سكن فيه، فإنّه لا يعمل بكبيرة أبداً[1].

وفي رواية أخرى عن الإمام أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح منه، تحضره في كلّ وقت يُحسن فيه ويتّقي، وتغيب عنه في كلّ وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتزّ سروراً عند إحسانه، وتسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم، تزدادوا يقيناً وتربحوا نفيساً ثميناً، رحم الله امرءاً همّ بخير فعمله، أو همّ بشرّ فارتدع عنه**»[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٥ ص٥٣، الحديث: ١٤.

(٢) الأصول من الكافي، ج٢ ص٢٦٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الروح الذي أيّد به

وقد بيّنت الروايات دور كلّ واحدة من هذه الأرواح، حيث ورد عن المفضل بن عمر، عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) قال: سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض، وهو في بيته مرخى عليه ستره.

فقال (عليه السلام) : **يا مفضّل إنّ اللّه تبارك وتعالى، جعل في النبيّ (صلّى اللّه عليه وآله) خمسة أرواح، روح الحياة، فبه دبّ ودرج، وروح القوّة، فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة، فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان، فبه آمن وعدل، وروح القدس، فبه حمل النبوّة، فإذا قبض النبيّ (صلّى اللّه عليه وآله) انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به**[1].

وهذه الروح التي يؤيّد بها المؤمن، لها عينان وأُذنان، كما نسب إلى النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) : **«ما من قلب إلاّ وله عينان وأُذنان، فإذا أراد اللّه بعبد خيراً فتح عينيه اللتين للقلب ليشاهد بهما الملكوت»**[2].

وورد عنه أيضاً: **«لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم**

المؤمن، الحديث: ١.

(١) الأصول من الكافي، ج١ ص٢٧٢، كتاب الحجّة، باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمّة (عليهم السلام) الحديث: ٣.

(٢) تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم ، السيّد حيدر الآملي، ج١ ص٢٧٢.

لنظروا إلى الملكوت»[١].

وهذا المعنى هو الذي ورد في مسند أحمد بن حنبل، بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): **ليلة أُسري بي .. فلما نزلت إلى السماء الدنيا، نظرت أسفل منّي، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات.**

فقلت: ما هذا يا جبرئيل؟

قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، أن لا يتفكّروا في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب[٢].

ويقرب منه ما جاء عن سلاّم بن المستنير قال: كنت عند أبي جعفر الباقر (عليه السلام) فدخل عليه حمران بن أعين ، وسأله عن أشياء، فلمّا همَّ حمران بالقيام، قال لأبي جعفر (عليه السلام): أخبرك أطال الله بقاءك وأمتعنا بك، أنا نأتيك فما نخرج من عندك حتّى ترقّ قلوبنا وتسلوا أنفسنا عن الدنيا، ويهون علينا ما في أيدي الناس من هذه الأموال. ثمّ نخرج من عندك فإذا صرنا مع الناس والتجّار، أحببنا الدنيا.

قال: فقال أبو جعفر (عليه السلام) : **إنّما هي القلوب، مرّة تصعب ومرّة تسهل.**

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج١ ص٢٣٢، كتاب أسرار الصوم؛ بحار الأنوار، المجلسي، ج٧٠ ص٥٩.

(٢) تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج١ ص٢٧٢.

ثمّ قال أبو جعفر (عليه السلام) : **أما إنّ أصحاب محمّد (صلّى الله عليه وآله) قالوا: يارسول الله نخاف علينا النفاق؟**

قال: فقال: ولِمَ تخافون ذلك؟

قالوا: إذا كنّا عندك فذكّرتنا ورغّبتنا، وَجِلْنا ونسينا الدنيا وزهدنا حتى كأنّا نعاين الآخرة والجنّة ونحن عندك، فإذا خرجنا من عندك ودخلنا هذه البيوت، وشممنا الأولاد، ورأينا العيال والأهل، يكاد أن نحوّل عن الحال التي كنّا عليها عندك، وحتّى كأنّا لم نكن على شيء، أفتخاف علينا أن يكون ذلك نفاقاً؟

فقال لهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله): **«كلاّ، إنّ هذه خطوات الشيطان، فيرغّبكم في الدنيا، والله لو تدومون على الحالة التي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء**[1].

وهذه العين هي التي يعبّر عنها القرآن بالبصيرة في قوله تعالى: **﴿قُلْ هذهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةَ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾**[2]، في قبال العين التي عبّر عنها القرآن بالبصر، وهي لمشاهدة عالم الشهادة والملك: **﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ منْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[3].

---

(١) الأصول من الكافي، ج١ ص٤٢٣، كتاب الإيمان والكفر، باب في تنقل أحوال القلب، الحديث: ١.

(٢) يوسف: ١٠٨.

(٣) النحل: ٧٨.

وعين البصيرة هي التي يصيبها العمى من خلال المعصية، قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢].

فتحصّل ممّا تقدّم أنّ من شملته العناية الإلهية وأيّدته بروح منه، وجعلت له نوراً يمشي به في الناس، فإنّه يرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعونه، ويعقل ما لا يعقلونه ويريد ما لا يريدونه. قال إمام المتّقين وسيّد العارفين علي أمير المؤمنين (عليه السلام) عند تلاوته لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[٣]: «**إنّ اللّه عزّوجلّ جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح للّه ـ عزت آلاؤه ـ في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكّرون بأيّام اللّه، ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلّة في الفلوات، مَن أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشّروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق، وحذّروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلّة تلك الشبهات.**

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) الحج: ٤٦.

(٣) النور: ٣٦ ، ٣٧ .

وإنّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيّام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم اللّٰه في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط، ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنّما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحقّقت القيامة عليهم عِداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لايسمعون»[1].

هذه هي الخصوصية الأولى لأهل التقوى في الدنيا، وهناك آيات كثيرة في القرآن نطقت بهذه الحقيقة، يمكن الرجوع إليها في مظانّها.

الفرقان بين الحقّ والباطل

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[2]. قالالراغب في المفردات: «فرقت بين الشيئين فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة. والفرقان أبلغ من الفرق، لأنّه يستعمل في الفرق بين الحقّ والباطل»[3].

«وهو في الآية بقرينة السياق وتفريعه على التقوى : الفرقان بين الحق والباطل، سواء كان ذلك في الاعتقاد (بالتفرقة بين الإيمان والكفر، وكلّ

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٢.

(٢) الأنفال: ٢٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الإصفهاني: مادة «فَرَق».

هدىً وضلال)، أو في العمل (بالتمييزبين الطاعة والمعصية، وكلّ ما يرضي الله أو يسخطه)، أو في الرأي والنظر (بالفصل بين الصواب والخطأ)، فإنّ جميع ذلك كلّه ممّا تثمره شجرة التقوى . وقد أطلق الفرقان في الآية ولم يقيّده»[١].

نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٢]. قال الراغب في المفردات: «الجَهْدُ والجُهد: الطاقة والمشقّة، والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدوّ الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس»[٣].

«وقوله ﴿**جَاهَدُوا فِينَا**﴾ أي استقرّ جهادهم فينا، وهو استعارة كنائية عن كون جهده مبذولاً فيما يتعلّق به تعالى من اعتقاد وعمل، فلا ينصرف عن الإيمان به، والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه.

وقوله ﴿**لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ أثبت لنفسه سبلاً وهي أيّاً ما كانت تنتهي إليه تعالى، فإنّما السبيل سبيل لتأديته إلى ذي السبيل، وهو غايتها. فسبله هي الطرق المقرّبة منه والهادية إليه تعالى. وممّا تقدّم يظهر أن لا حاجة في قوله ﴿فِينَا﴾ إلى تقدير مضاف كشأن، والتقدير: في شأننا»[٤].

هذا معناه «أنّه بقدر ما تتطهّر القلوب من الأخلاق المذمومة التي هي

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٩ ص٥٦.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة «جهد».

(٤) الميزان في تفسير القرآن، ج١٦ ص١٥١.

الحُجب المانعة عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية، تتحاذى شطر الحقّ الأوّل، وتتلألأ فيها حقائقه، كما أشار إليه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : **«إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات، ألا فتعرّضوا لها»** فإنّ التعرّض لها، إنّما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الرديّة، فكلّ إقبال على طاعة، وإعراض عن سيّئة، يوجب جلاءً ونوراً للقلب، يستعدّ به لإفاضة علم يقيني.

وقال النبي أيضاً: **«من عمل بما علِم ورّثه اللّه علم مالم يعلم»**.

فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية، مبذولة على الكلّ، غير مظنون بها على أحد ﴿**كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاَءِ وَهؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾[1]، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية. ومع تراكم صدئها الحاصل منها، لا يمكن أن يتجلّى فيها شيء من الحقائق. فلا تحجب الأنوار العلمية، والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك، بل الاحتجاب إنّما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضادّ ذلك.

ثمّ ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره، هو العلم الحقيقي النوراني الذي لا يقبل الشكّ، وله غاية الظهور والانجلاء، لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقّة الربّانية، وهو المراد بقوله (عليه السلام) : **«إنّما هو نورٌ يقذفه اللّه في قلب من يشاء»**.

وبما ذُكر ظهر أنّ العلم الذي يحصل من طرق المجادلات الكلامية

---

(١) الإسراء: ٢٠ .

والاستدلالات الفكرية، من دون تصقيل لجوهر النفس، لا يخلو عن الكدرة والظلمة، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي، الذي يحصل للنفوس الصافية. فما يظنّه كثير من أهل التعلّق بقاذورات الدنيا أنّهم على حقيقة اليقين في معرفة الله سبحانه، خلاف الواقع. وإنّما هو إما تصديق مشوب بالشبهة، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات»[١].

وقد أشار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى هذه الحقائق في كلماته، حيث قال: **«قد أحيى عقله، وأمات نفسه، حتى دقّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»**[٢].

«ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً»

قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ**

(١) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ج١ ص٤٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٢) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام في وصف سالك الطريق إلى الله سبحانه: رقم ٢٢٠.

شَيْءٍ قَدْراً﴾[(١)].

ذكرنا في أبحاث سابقة أنّ أهل التقوى لهم مراتب، وأنّهم يختلفون في درجاتهم من حيث المعرفة والعمل الصالح، وهذا معناه أنّ ولاية الله لهم، تلائم حالهم في إخلاص الإيمان والعمل، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿**وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[(٢)]، ويقول: ﴿**وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[(٣)]. وعلى هذا الأساس، فنصيب المخلصين من أولياء الله من هذه الآية شيء، ونصيب من هو دونهم من المؤمنين المتوسّطين شيء آخر.

أمّا نصيب المخلصين فهو «أنّ من اتقى الله بحقيقة معنى تقواه ﴿**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾[(٤)] ولا يتمّ ذلك إلاّ بمعرفته تعالى بأسمائه وصفاته، ثمّ تورّعه واتقائه بالاجتناب عن المحرّمات وتحرز ترك الواجبات خالصاً لوجهه الكريم ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[(٥)] ولازمه أن لا يريد إلاّ ما يريده الله من فعل أو ترك، ولازمه أن يستهلك إرادته في إرادة الله، فلا يصدر عنه فعل إلاّعن إرادة من الله.

ولازم ذلك أن يرى نفسه وما يترتّب عليها من سمة أو فعل، ملكاً طلقاً لله سبحانه، يتصرّف فيها ما يشاء، وهو ولاية الله، يتولّى أمر عبده، فلا يبقى

---

(١) الطلاق: ٢ ، ٣ .

(٢) آل عمران: ٦٨.

(٣) الجاثية: ١٩.

(٤) آل عمران: ١٠٢.

(٥) الأعراف: ٢٩.

له من الملك بحقيقة معناه شيء إلاّ ملّكه الله سبحانه، وهو المالك لما ملّكه، والمُلك لله عزّ اسمه. وعند ذلك ينجيه الله من مضيق الوهم وسجن الشرك بالتعلّق بالأسباب الظاهرية **﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ﴾**[(١)].

أمّا الرزق المادّي، فإنّه كان يرى ذلك من عطايا سعيه، والأسباب الظاهرية التي كان يطمئن إليها، وما كان يعلم من الأسباب إلاّ قليلاً من كثير، كقبس من نار، يضيء للإنسان في الليلة الظلماء موضع قدمه، وهو غافل عمّا وراءه، لكن الله سبحانه محيط بالأسباب، وهو الناظم لها ينظمها كيف يشاء، ويأذن في تأثير ما لا علم له به من خباياها. وأمّا الرزق المعنوي الذي هو حقيقة الرزق الذي تعيش به النفس الإنسانية وتبقى، فهو ممّا لم يمكن يحتسبه، ولا يحتسب طريق وروده عليه.

وبالجملة هو سبحانه يتولّى أمره، ويخرجه من مهبط الهلاك، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ولا يفقد من كماله والنعم التي كان يرجو نيلها بسعيه شيئاً، لأنّه توكّل على الله، وفوّض إلى ربّه ما كان لنفسه. **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** دون سائر الأسباب الظاهرية التي تخطئ تارة وتصيب أُخرى. **﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾** لأنّ الأمور محدودة محاطة له تعالى و**﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾**[(٢)] فهو غير خارج عن قدره الذي قدّره به.

وأمّا نصيب من هو دونهم من المؤمنين فهو أنّ من يتّق الله ويتورّع

---

(١) الطلاق: ٢.

(٢) الطلاق: ٤.

عن محارمه، ولم يتعد حدوده، واحترم شريعته، فعمل بها؛ ﴿**يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً**﴾ من مضائق مشكلات الحياة، فإنّ شريعته فطرية، يهدي بها الله الإنسان إلى ما تستدعيه فطرته، وتقضي به حاجته، وتضمن سعادته في الدنيا والآخرة ﴿**وَيَرْزُقْه**﴾ من الزوج والمال، وكلّ ما يفتقر إليه من طيب عيشه، وزكاة حياته ﴿**مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِب**﴾ ولا يتوقّع، فلا يخف المؤمن أنّه إذا اتقى الله، واحترم حدوده، حرم طيب الحياة، وابتلي بضنك المعيشة، فإنّ الرزق مضمون، والله على ما ضمنه قادر.

﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله**﴾ فاعتزاله عن نفسه فيما تهواه وتأمر به، وإيثاره إرادة الله سبحانه على إرادة نفسه، والعمل الذي يريده الله، على العمل الذي تهواه وتريده نفسه، وبعبارة أُخرى تدين بدين الله وتعمل بأحكامه ﴿**فَهُوَ حَسْبُه**﴾ أي كافيه فيما يريده من طيب العيش، ويتمنّاه من السعادة بفطرته، لا بواهمته الكاذبة.

وذلك أنّه تعالى هو السبب الأعلى الذي تنتهي إليه الأسباب، فإذا أراد شيئاً فعله وبلغ ما أراده من غير أن تتغيّر إرادته، فهو القائل: ﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**﴾[1] أو يحول بينه وبين ما أراده مانع، لأنّه القائل: ﴿**وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِه**﴾[2].

وأمّا الأسباب الأُخر التي تشبّث بها الإنسان في رفع حوائجه، فإنّما تملك من السببية ما ملّكها الله سبحانه، وهو المالك لما ملّكها، والقادر على

---

(١) ق: ٢٩.

(٢) الرعد: ٤١.

ما عليه أقدرها، ولها من الفعل مقدار ما أذن الله فيه، فالله كاف لمن توكّل عليه لا غيره ﴿إِنَّ اللهُ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ يبلغ حيث أراد، وهو القائل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾[١]، ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ فما من شيء إلاّ له قدر مقدور، وحدّ محدود، والله سبحانه لا يحدّه حدّ ولا يحيط به شيء، وهو المحيط بكلّ شيء»[٢].

إذن عندما يدعو الإنسان ربّه أن يكون مدخله مدخل صدق، ومخرجه مخرج صدق، ويريد اليسر والتيسير في حياته، فالطريق إلى ذلك يمرّ من خلال التقوى. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[٤]. وقال أيضاً: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾[٥]. وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[٦].

أي «لا يضلّ في طريقه ولا يشقى في غايته التي هي عاقبة أمره، وإطلاق الضلال والشقاء يقضي بنفي الضلال والشقاء عنه في الدنيا والآخرة جميعاً، وهو كذلك، فإنّ الهدى الإلهي هو الدين الفطري الذي دعا

---

(١) يس : ٨٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١٩ ص٣١٣.

(٣) الإسراء: ٨٠.

(٤) الطلاق: ٤.

(٥) طه: ١٢٣.

(٦) الليل: ٥ ـ ٧.

إليه بلسان أنبيائه، ودين الفطرة هو مجموع الاعتقادات والأعمال التي تدعو إليها فطرة الإنسان وخلْقته، بحسب ما جهز من الجهازات»[١].

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): **«ولو أنّ السموات والأرضين كانتا على عبد رتقاً(٢)، ثمّ اتقى الله، لجعل الله له منهما مخرجاً»**[٣].

وقال أيضاً: **«واعلموا أنّه من يتَّقِ اللّهَ يجعلْ له مَخْرجاً من الفتن، ونوراً من الظلم»**[٤].

وقال أيضاً: **«فإنّ تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كلّ ملكة، ونجاة من كلّ هلكة، بها ينجح الطالب وينجو الهارب وتُنال الرغائب»**[٥].

أثر التقوى على ذرية الإنسان

أشار القرآن إلى آثار التقوى بالنسبة إلى ذرية الإنسان أيضاً، حيث نجد في قصّة ذلك العبد الصالح مع النبي موسى (عليه السلام) أنّ القرآن يحدّثنا بقوله تعالى: ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَة اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ**

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج١٤، ص٢٢٤.

(٢) الرتق: الضمّ والالتحام خِلقةً كان أم صنعة، قال تعالى: كانتا رتقاً ففتقناهماأي منضمّتين. المفردات في غريب القرآن، مادّة «رتق».

(٣) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام ، رقم: ١٣٠.

(٤) نهج البلاغه، الخطبة: ١٨٣.

(٥) نهج البلاغه، الخطبة: ٢٣٠.

يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[١].

فكان الجواب من العبد الصالح ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾[٢]. ففي الآية الكريمة دلالة واضحة على أنّ صلاح الآباء له آثار طيّبة على سعادة الأبناء.

عن إسحاق بن عمّار، قال: سمعت أبا عبدالله الصادق (عليه السلام) يقول: **«إنّ الله ليُصلح بصلاح الرجل المؤمن وُلده ووُلد وُلدِه، ويحفظه في دُوَيْرته ودُويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله» ثمّ ذكر الغلامين، فقال: وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاًألم ترَ أنّ الله شكر صلاح أبويهما لهما»**[٣].

وكذلك عن زرارة وحُمران، عن أبي جعفر الباقر وأبي عبدالله الصادق (عليهما السلام) قال: **«يحفظ الأطفال بأعمال آبائهم، كما حفظ الله**

(١) الكهف : ٧٧.

(٢) الكهف: ٨٢ .

(٣) تفسير العيّاشي، ج٢ ص٣٦٣، ح٦٣، نقلاً عن البرهان في تفسير القرآن، العلاّمة المحدِّث السيّد هاشم البحراني، ج٥ ص٦٠ منشورات مؤسّسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان.

الغلامين بصلاح أبيهما»[١].

نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**﴾[٢] حيث لم «تؤمر الناس بالترحّم والترؤف ونحو ذلك، بل بالخشية واتقاء الله، وليس إلاّ أنّه تهديد بحلول ما أحلّوا بأيتام الناس، من إبطال حقوقهم وأكل مالهم ظلماً، بأيتام أنفسهم بعدهم، وارتداد المصائب التي أوردوها عليهم إلى ذريّتهم بعدهم»[٣].

لا يقتصر الأمر على الآثار الفردية للتقوى في الدنيا، بل أشار القرآن الكريم إلى الآثار الاجتماعية المترتّبة على التقوى في هذه النشأة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمبَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[٤]، أي أنّ أهل القرى لو آمنوا واتّقوا لفتح الله سبحانه بركات السماء من الأمطار والثلوج والحرّ والبرد وغير ذلك، كلّ في موقعه وبالمقدار النافع منه، وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها، وهذا خير دليل على أنّ افتتاح أبواب البركات مسبّب لإيمان أهل القرى جميعاً وتقواهم، أي أنّ ذلك من آثار إيمان النوع الإنساني وتقواه»[٥].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) النساء: ٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٤ ص٢٥١.

(٤) الأعراف: ٩٦.

(٥) الميزان في تفسير القرآن، ج٨ ص٢٠١.

نظير هذه الآية قوله تعالى: **﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾**(١)، «والمراد بالطريقة: طريقة الإسلام،والاستقامة عليها: لزومها والثبات عليها، على ما تقتضيه من الإيمان بالله وآياته. والماء الغدق: الكثير منه.

ولا يبعد أن يستفاد من السياق أنّ قوله «لأسقيناهم ماءً غدقاً» مثل اُريد به التوسعة في الرزق، ويؤيّده قوله تعالى بعد هذه الآية: **﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾**(٢). فيكون معنى الآية «وأنّه لو استقاموا» أي الجن والإنس على طريقة الإسلام لله، لرزقناهم رزقاً كثيراً لنمتّعهم في رزقهم»(٣).

أجل، يبقى الكلام في معرفة كيف أنّ الاستقامة على طريقة الإسلام وهداه، تكون سبباً لفتح بركات السماء والأرض على الإنسان، وما هي العلاقة القائمة بين الإيمان والتقوى وبين الرزق الكثير الوافر. وهذا ما نحاول الوقوف عليه، عند عرض الآثار السلبية للفجور في هذه النشأة، حيث سيتبيّن أنّ من الحقائق الناصعة التي أكّدها القرآن الكريم، أنّ أساس نزول النعم والنقم على الإنسان، إنّما تدور مدار تقواه وفجوره.

---

(١) الجن: ١٦.

(٢) طه: ١٣١.

(٣) الميزان، مصدر سابق، ج٢٠ ص٤٦.

التبعات السلبية للفجور في الدنيا

عندما ننتقل إلى البُعد الآخر، نجد القرآن الكريم يؤكّدبوضوح أيضاً الآثار الدنيوية المترتّبة على الفجور والانحراف عن الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وكَذَّبَ بِالْحُسْنَى**﴾[1]، حيث دلّت الآية أنّ المكذِّب وغير المتّقي، يجد صعوبة وضنكاً وعدم تيسير في حياته، ولكنّه لا يعرف سبب ذلك.

من هنا قالت الآيات الكريمة: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**﴾[2].

قال الراغب في المفردات: «العيش: الحياة المختصّة بالحيوان، وهو أخصّ من الحياة، لأنّ الحياة تقال في الحيوان وفي الباري وفي المَلَك.

---

(١) الليل: ٨ ـ ١٠.

(٢) طه: ١٢٤ ـ ١٢٧.

ويشتقّ منه المعيشة لما يتعيّش منه، قال تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[1] ﴿**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**﴾[2] وقال في أهل الجنّة: ﴿**فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾[3].

وقال (عليه السلام) : **لا عيش إلاّ عيش الآخرة»**[4].

«والضنك هو الضيق من كلّ شيء، ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث، يقال: مكان ضنك، ومعيشة ضنك، وهو في الأصل مصدر، ضَنُك يضنُك من باب شرف يشرف، أي ضاق.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي**﴾[5] يقابل قوله في الآية السابقة ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ**﴾[6] وكان مقتضى المقابلة أن يقال «ومن لم يتبع هداي» وإنّما عدل عنه إلى ذكر الإعراض عن الذكر، ليشير به إلى علّة الحكم، لأنّ نسيانه تعالى والإعراض عن ذكره، هو السبب لضنك العيش والعمى يوم القيامة، وليكون توطئة وتمهيداً لما سيذكر من نسيانه تعالى يوم القيامة مَن نسيه في الدنيا. والمراد بذكره (تعالى): الدعوة الحقّة. وتسميتها ذكراً، لأنّ لازم اتباعها والأخذ بها ذكره تعالى.

---

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) الاعراف:١٠.

(٣) الحاقة:١٢.

(٤) المفردات، مادّة «عيش».

(٥) طه: ١٢٤.

(٦) طه: ١٢٣.

وقوله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ أي ضيّقة، وذلك أنّ من نسي ربّه، وانقطع عن ذكره، لم يبق له إلاّ أن يتعلّق بالدنيا، ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتم بإصلاح معيشته والتوسّع فيها والتمتّع بها، والمعيشة التي أوتيها في الدنيا، لا تسعه سواء كانت قليلة أو كثيرة، لأنّه كلّما حصل منها واقتفاها، لم ترض نفسه بها ونزعت إلى ما هو أزيد وأوسع من غير أن تقف منها على حدّ، فهو دائماً في ضيق صدر وحنق ممّا وجد، متعلّق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهمّ والغمّ والحزن والقلق والاضطراب، والخوف بنزول النوازل وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة وحسد حاسد وكيد كائد وخيبة سعي وفراق حبيب.

ولو أنّه عرف مقام ربّه، ذاكراً غير ناس، أيقن أنّ له حياة عند ربّه، لا يخالطها موت، ومُلكاً لا يعتريه زوال، وعزّة لا يشوبها ذلّة، وفرحاً وسروراً ورفعة وكرامة لا تقدَّر بقدر ولا تنتهي إلى أمد، وأنّ الدنيا دار مجاز، وما حياتها في الآخرة إلاّ متاع ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾[1]، فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قُدِّر له من الدنيا، ووسعه ما أوتيه من المعيشة من غير ضيق وضنك»[2]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3]، حيث نبّهت الآية المباركة أنّ الإنسان لا مفرّ له إلاّ بالتوجّه إليه تعالى، لأنّ ذكره هو الذي يريح القلب، وينجيه من القلق

(١) الرعد: ٢٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١٤ ص٢٢٤.

(٣) الرعد: ٢٨ .

والاضطراب، لأنّ الإنسان لا همّ له في حياته الدنيا إلاّالفوز بالسعادة والنعمة، ولا خوف له إلاّ أن تحيط به النقمة والشقاء.

«والله سبحانه هو السبب الوحيد الذي بيده زمام الخير وإليه يرجع الأمر كلّه، وهو القاهر فوق عباده، والفعّال لما يريد، وهو ولي عباده المؤمنين به، اللاجئين إليه، فذكره للنفس الأسيرة بيد الحوادث، الطالبة لركن شديد يضمن له السعادة، المتحيّرة في أمرها وهي لا تعلم أين تريد ولا أنّى يراد بها.

فكلّ قلب ـ على ما يفيده الجمع المحلّى باللام من العموم ـ يطمئن بذكر الله، ويسكن به ما فيه من القلق والاضطراب، نعم إنّما ذلك في القلب الذي يستحقّ أن يسمّى قلباً، وهو القلب الباقي على بصيرته ورشده، وأمّا المنحرف عن أصله، الذي لا يبصر ولا يفقه، فهو مصروف عن الذكر، محروم عن الطمأنينة والسكون، قال تعالى:﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1].

وقال: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا**﴾[2].

وقال: ﴿**نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾[3].

وفي لفظ الآية ما يدلّ على الحصر، حيث قدّم متعلّق الفعل، أعني قوله: ﴿بِذِكْرِ الله﴾ على الفعل، فيفيد أنّ القلوب لاتطمئن بشيء غير ذكر الله

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) التوبة: ٦٧.

سبحانه، لأنّه تعالى هو الغالب غير المغلوب الغني ذو الرحمة، فبذكره سبحانه وحده تطمئن القلوب»[١].

التبعات الوجودية

ولا تقتصر الآيات القرآنية على بيان التبعات السلبية للفجور في الحياة الفردية للإنسان، بل تتجاوزها إلى ما هو أعمق غوراً وأوسع أثراً، حيث تثبت أنّ هناك رابطة مباشرة بين فجورالإنسان وإفساده في الأرض، وبين ظهور الكوارث والأمراض ونحوهما.

ومعنى ذلك: «أنّ الحوادث الكونية تتبع الأعمال الإنسانية بعض التبعية، فإذا جرى النوع الإنساني على طاعة الله سبحانه وسلك الطريق الذي يرتضيه، فإنّه يستتبع نزول الخيرات وانفتاح أبواب البركات، أمّا إذا انحرف عن صراط العبودية، وتمادى في الغيّ والضلال، وفساد النيّات، وشناعة الأعمال، فإنّ ذلك يوجب ظهور الفساد في البرّ والبحر، وهلاك الأُمم بانتشار الظلم وارتفاع الامن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله. وكذا تظهر المصائب والحوادث الكونية المبيدة، كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك، وقد عدّ الله سبحانه سيل العرم وطوفان نوح وصاعقة ثمود وصرصر عاد من هذا القبيل»[٢].

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا**

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج١١ ص٣٥٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٢ ص١٨١ بتصرّف.

مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُل خَمْط وَأَثْل وَشَيْء مِنْ سِدْر قَلِيل * ذلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُور﴾(١).

وقال في قوم نوح (عليه السلام): ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣). وموارد أخرى أشار إليها القرآن الكريم.

ربما كانت أشمل آية دلّت على هذه الحقيقة القرآنية، هي قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(٤) «وهي بظاهر لفظها عامّة، ولا تختصّ بزمان دون زمان، أو بمكان أو بواقعة خاصّة، فالمراد بالبرّ والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية. والمراد بالفساد الظاهر: المصائب والبلايا الظاهرة فيهما، الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض، من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية والحروب والغارات وارتفاع الأمن، وبالجملة كلّ ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي، سواء كان مستنداً إلى اختيار بعض الناس، أو غير مستند

---

(١) سبأ: ١٥ ـ ١٧.
(٢) نوح: ٢٥ .
(٣) فصّلت: ١٧.
(٤) الروم: ٤١.

إليه، فكلّ ذلك فساد ظاهر في البرّ أو البحر مخلّ بطيب العيش الإنساني. وقوله: ﴿**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية»[1].

وهذا المعنى أُشير إليه في آية أُخرى، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾[2]، «والخطاب في الآية اجتماعي موجّه إلى المجتمع، غير منحلّ إلى خطابات جزئية، ولازمه كون المراد بالمصيبة التي تصيبهم، المصائب العامّة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل وغير ذلك، فيكون المراد أنّ المصائب والنوائب التي تصيب مجتمعكم، إنّما تصيبكم بسبب معاصيكم.

والحاصل أنّ الخطاب في الآية لعامّة الناس من المؤمن والكافر، وهو الذي يفيده السياق وتؤيّده الآية التالية، هذا أوّلاً. والمراد بما كسبته الأيدي: المعاصي والسيّئات دون مطلق الأعمال، وهذا ثانياً. والمصائب التي تصيب إنّما هي آثار الأعمال في الدنيا؛ لما بين الأعمال وبينها من الارتباط والتداعي، دون جزاء الأعمال (الأخروي) وهذا ثالثاً»[3].

فإذاً إذا انغمر المجتمع في الرذائل والسيئات، وخرج عن الطريق الذي أودعه الله في فطرته ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ**

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج١٦ ص١٩٥.

(٢) الشورى: ٣٠.

(٣) الميزان، مصدر سابق، ج١٨ ص٥٩ .

عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾[١] أذاقه الله وبال أمره، وأدّى ذلك إلى إهلاكه وإبادته، قال تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾**[٢].

وقال تعالى: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾**[٣]. وقال أيضاً: **﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**[٤].

وهذه من السنن الإلهية التي أكّدها القرآن في مواضع كثيرة، وبيّن أنّها لا تقبل التبديل والتحويل، قال تعالى: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾**[٥].

وقد أكّدت جملة وافرة من الروايات هذه الحقيقة القرآنية، منها:

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) المؤمن: ٢١.

(٣) الإسراء: ١٦.

(٤) المؤمنون: ٤٤.

(٥) فاطر: ٤٢ ـ ٤٣ .

١ ـ عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «**خمس إن أدركتموهن فتعوّذوا منهنّ:**

● لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها إلاّ ظهر فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا.

● ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أُخذوا بالسنين وشدّة المؤونة وجور السلطان.

● ولم يمنعوا الزكاة إلاّ مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

● ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلاّ سلّط الله عليهم عدوّهم، وأُخذوا بعض ما في أيديهم.

● ولم يحكموا بغير ما أنزل الله إلاّ جعل الله عزّوجلّ بأسهم بينهم»[(١)].

«الفاحشة هي الزنا، والسنة هي الجدب والقحط، والمؤونة هي القوت، وشدّة المؤونة ضيقها وعسر تحصيلها»[(٢)].

قال المازندراني في شرح أصول الكافي:

---

(١) الأصول من الكافي، كتاب الكفر والإيمان، باب في عقوبات المعاصي العاجلة، الحديث: ١.

(٢) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، العلاّمة المجلسي، ج١١ ص٧٠، دار الكتب الإسلامية.

«إنّ الأوّل لما كان فيه تضييع آلة النسل، ناسبه الطاعون الموجب لانقطاع النسل. والثاني لما كان فيه زيادة المعيشة، ناسبه القحط وشدّة المؤونة وجور السلطان بأخذ المال وغيره، والثالث لما كان فيه منع ما أعطاه الله بتوسط الماء، ناسبه منع نزول المطر من السماء. والرابع لما كان فيه ترك العدل، والحاكم العادل، ناسبه تسلّط العدوّ وأخذ الأموال. والخامس لما كان فيه رفض الشريعة وترك القوانين العدلية، ناسبه وقوع الظلم بينهم وغلبة بعضهم على بعض.

وفيه تنبيه على أنّ لهذه الأُمور تأثيراً عظيماً في نزول هذه البلايا، وورود هذه المصائب، لاستعداد أهلها بالانهماك فيها، وعدم المبالاة بها، لسخط الله وعقوبته.

وأشار بقوله: «ولولا البهائم لم يمطروا» إلى أن وجود البهائم رحمة للناس، وسبب لوصول فيض الحقّ إليهم، وذلك لأنّ بقاء البهائم ونشوءها بالماء والكلاء، وهو متوقّف على نزول المطر من السماء، فإذا نزل المطر رعاية لحالها وحفظاً لنظام أحوالها، انتفع به بنو آدم أيضاً، كما دلّت عليه حكاية النملة واستسقائها وقولها «اللّهم لا تؤاخذنا بذنوب بني آدم». وكما أنّ عقوبة الله عزّوجل قد تعمّ الأبرار بشؤم الأشرار، كذلك رحمة الله قد تعمّ الأشرار لرعاية الضعفاء والأخيار.

ولعلّ المراد بعهد الله وعهد رسوله، هو العهد بنصرة الإمام الحقّ واتباعه في جميع الأمور، وظاهر أنّ ذلك موجب لظهور العدل بينهم وحفظ أموالهم ودمائهم، وقطع أيدي الأعداء عنهم. وأنّ نقض ذلك العهد

والهجران عن الإمام، موجب لتسلّط سلطان الجور عليهم وأخذ أموالهم وسفك دمائهم، كما هو مشاهد الآن في أقطار الأرض. وأمّا جعل بأسهم بينهم وهو القوّة والشدّة والعذاب، فكأنّ المراد به غلبة بعضهم على بعض، بالتعدّي والطغيان ومعاونة بعضهم لبعض على الظلم والعدوان»[١].

٢ ـ عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال:

- **«إذا فشت أربعة، ظهرت أربعة: إذا فشا الزنا ظهرت الزلزلة، وإذا فشا الجور في الحكم احتبس القطر، وإذا خفرت الذمة[٢] أُديل[٣] لأهل الشرك من أهل الإسلام، وإذا منعت الزكاة ظهرت الحاجة»**[٤].

٣ ـ عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) :

- **«الذنوب التي تغيّر النعم، البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف، وكفران النعم، وترك الشكر، قال الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ**

---

(١) شرح جامع لأصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني، ج١ ص٣٠، منشورات المكتبة الإسلامية.

(٢) أخفر الذمة: لم يف بها.

(٣) الإدالة: الغلبة.

(٤) الأصول من الكافي، ج٢ ص٤٤٨، كتاب الكفر والإيمان، باب في تفسير الذنوب، الحديث: ٣.

حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(١)].

● **والذنوب التي تُنزل النِقم: عصيان العارف بالبغي، والتطاول على الناس، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم.**

● **والذنوب التي تنزل البلاء: ترك إغاثة الملهوف، ومعاونة المظلوم، وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

● **والذنوب التي تُديل الأعداء: المجاهرة بالظلم، وإعلان الفجور، وإباحة المحظور، وعصيان الأخيار، والاتباع للأشرار.**

● **والذنوب التي تعجِّل الفناء: قطيعة الرحم، واليمين الفاجرة، والأقوال الكاذبة، والزنا، وسدّ طرُق المسلمين، وادّعاء الإمامة بغير حقّ.**

● **والذنوب التي تحبس غيث السماء: جور الحكّام في القضاء، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، ومنع الزكاة والقرْض والماعون، وقساوة القلوب على أهل الفقر والفاقة، وظلم اليتيم والأرملة، وانتهار السائل وردّه بالليل»**[(٢)].

---

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) معاني الأخبار، ص٢٧٠، الحديث ٢ نقلاً من «البرهان في تفسير القرآن»، ج٦، ص١٦٢.

ثمّ أشار الإمام (عليه السلام) إلى جملة من الآثار الفردية للذنوب، حيث قال:

- **«والذنوب التي تردّ الدعاء: سوء الأمنية، وخُبث السريرة، والنفاق مع الإخوان، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرّب إلى الله عزّوجلّ بالبرّ والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول.**

- **والذنوب التي تقطع الرجاء: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والثقة بغير الله، والتكذيب بوعد الله عزّوجلّ.**

- **والذنوب التي تكشف الغطاء: الاستدانة بغير نيّة الأداء، والإسراف في النفقة على الباطل، والبُخل على الأهل والولد وذوي الأرحام، وسوء الخُلق، وقلّة الصبر، واستعمال الضجر والكسل، والاستهانة بأهل الدين.**

- **والذنوب التي تورث الندم: قتل النفس التي حرّم الله، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾[1]، وقال عزّوجلّ في قصّة قابيل حين قتل هابيل فعجز عن دفنه:**

(١) الإسراء: ٣٣.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[١]، وترك صلة القرابة حتى يستغنوا، وترك الصلاة حتى يخرج وقتها، وترك الوصية وردّ المظالم، ومنع الزكاة حتى يحضر الموت وينغلق اللسان.

- **والذنوب التي تدفع القِسم** (النصيب والحظ) **إظهار الافتقار، والنوم عن العتمة، وعن صلاة الغداة، واستحقار النعم، وشكوى المعبود عزّوجلّ.**

- **والذنوب التي تهتك العِصَم: شرب الخمر، واللعب بالقمار، وتعاطي ما يُضحك الناس من اللغو والمِزاح، وذكر عيوب الناس، ومجالسة أهل الريب»**[٢].

---

(١) المائدة: ٣١.

(٢) معاني الأخبار، ٢٧٠، ح: ٢، نقلاً من البرهان في تفسير القرآن، ج٦ ص١٦٢.

الرابطة الوجودية بين أعمال الإنسان والحوادث الكونية

من الحقائق التي أكّدها القرآن الكريم في آيات عديدة، أشرنا إلى بعضها إجمالاً، أنّ هناك نحواً من الارتباط الوجودي والتكويني بين أعمال الإنسان، أعمّ من أن تكون حسنات أو سيئات، وبين النظام الكوني، بنحو لو جرى الفرد أو المجتمع على ما تقتضيه الفطرة الإلهية من الاعتقاد بالله تعالى، والعمل الصالح، لنزلت عليه الخيرات وفتحت عليه أبواب البركات، والعكس بالعكس.

هنا قد يطرح تساؤل مهمّ، مفاده: أنّ الحوادث العامة والخاصة التي تصيب الإنسان من خير أو شرّ، لها علل طبيعية وقوانين وسنن مادية تحكمها، إذا تحقّقت تلك الأسباب والعلل، تحقّقت معاليلها التي ترتبط بها، سواء صلحت النفوس أو طلحت، وبتعبير قرآني سواء استقامت على الطريقة أم انحرفت عنها، وعليه فلا مجال لربط هذه الحوادث بالأعمال

الحسنة أو السيّئة للإنسان.

الجواب: أنّ هذا التساؤل ناشئ من عدم فهم السنن الإلهية التي أودعها الله تعالى في هذا العالم. توضيح ذلك: أنّ العالم بما فيه من الأجزاء متّصل بعضه ببعض، اتصال أعضاء بدن واحد، بنحو يؤثّر صحّة وسقم بعض أجزائه، على صحّة وسقم الأجزاء الأُخر، والجميع على ما يثبته القرآن الكريم سائر إلى الله سبحانه، سالك نحو الغاية التي قدّرت له، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾(١)، فكلّ شيء مهدي نحو كماله بما جهّز به في وجوده من القوى والأدوات التي يمكنه من خلالها الانتهاء إلى الغاية التي خُلق من أجلها. وقال تعالى: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرّ لَهَا ذلكَ تَقْديرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾(٣).

والتعبير بلفظ الجمع، دون أن تقولا «أتينا طائعتين» لعلّه للإشارة إلى أنّهما أيضاً غير متميّزتين من سائر مخلوقاته تعالى، المطيعة لأمره، السائرة في قافلة الوجود للرجوع إليه تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾(٤).

ربما كانت أوضح آية دلّت على الترابط الوثيق بين أجزاء هذا العالم،

---

(١) طه: ٥٠.

(٢) يس: ٣٨.

(٣) السجدة: ١١ .

(٤) العلق: ٨ .

هو قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾[١] وتقريب الاستدلال هو أن يقال: «إنّ قوام هذا العالم هو بارتباط أجزائه بعضها ببعض، فإنّ الأجزاء الحالية ترتبط بالأجزاء التي سوف تحدث من حيث إنّها تشكّل موادّها وتهيئ الأرضية لحدوثها، كما أنّها حدثت من الأجزاء السابقة، والأجزاء المتزامنة يرتبط بعضها ببعض بأنواع من التأثير والتأثّر والفعل والانفعال، ممّا يؤدّي إلى نموّ بعضها وذبول بعضها الآخر، إلى غير ذلك . فماء البحر يتسخّن بضوء الشمس فيتبخّر ويصعد إلى الجوّ سحاباً، ثمّ يتبدّل بتأثير العوامل الجويّة إلى المطر، فينزل على سطح الأرض فينمو به النبات، فيأكله الحيوان، كما أنّ الإنسان يتغذّى به وبلحم الحيوان.

فلكلّ جزء من أجزاء هذا العالم ارتباط عرْضي بالأجزاء المتزامنة، وارتباط طولي زماناً بالأجزاء السابقة واللاحقة، ممّا يجعل الكلّ منتظماً بنظام واحد شامل، فيحتاج بعضها إلى بعض في حدوثه وبقائه ونشوئه وتحوّله . فلو فرضنا وجود علل متعدّدة وأرباب متفرّقة لهذا العالم، لزم انعزال أجزائه بعضها عن بعض، لقيام كلّ جزء منه حينئذ بعلّته بلا واسطة، أو بوساطة معلولاتها، فينعزل عن غيرها وعن معلولات غيرها، ويؤدى هذا إلى فساد النظام الحاكم على العالم»[٢]، لذا قال تعالى: ﴿**مَا مِنْ دَابَّة إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم**﴾[٣].

---

(١) الأنبياء: ٢٢ .

(٢) تعليقة على نهاية الحكمة: مصباح يزدي، رقم : ٤٢٢.

(٣) هود: ٥٦.

ربما لهذا قالت الآية: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[1]، حيث أشارت إلى ما تقدّم بـ «هذا» مع كونه جمعاً ومؤنثاً، لتبيّن أنّ النظام الحاكم على هذا العالم واحد.

والحاصل «أنّ الله سبحانه هو الذي خلق كلّ شيء فقدّره تقديراً، وهداه إلى ما يسعده، ولم يخلق العالم سدىً، ولا شيئاً من أجزائه ومنها الإنسان لعباً، بل إنّما خلق ما خلق ليتقرّب منه ويرجع إليه، وهيأ له منزل سعادة يندفع إليه بحسب فطرته بإذن الله تعالى، وجعل له سبيلاً ينتهي إلى سعادته، فإذا سلك سبيله الفطري فهو، وإلاّ فإذا اختلّ أمر بعض أجزائه، وخاصة الأجزاء الشريفة، وضعف أثره وانحرف عن مستقيم صراطه، بان أثر فساده في غيره، وانعكس ذلك منه إلى نفسه في الآثار التي يرسلها ذلك الغير إليه، وهي آثار غير ملائمة لحال هذا الجزء المنحرف، وهي المحنة والبلية التي يقاسيها هذا السبب من ناحية سائر الأسباب.

فإن استقام بنفسه أو بإعانة من غيره، عاد إليه رفاه حاله السابق، ولو استمرّ على انحرافه واعوجاجه، وأدام فساد حاله، دامت له المحنة، حتى إذا طغى وتجاوز حدّه انتهضت عليه سائر الأسباب، وهاجت بقواها التي أودعها الله سبحانه فيها، لحفظ وجوداتها، فحطّمته ودكّته ومحته بغتةً وهو لا يشعر.

وهذه السنّة التي هي من السنن الكونية التي أقرّها الله سبحانه في

---

(١) آل عمران: ١٩١.

الكون، غير متخلّفة عن الإنسان، ولا الإنسان مستثنى منها، فالأمّة من الأمم إذا انحرفت عن صراط الفطرة انحرافاً يصدّها عن السعادة الإنسانية التي قدّرت غاية لمسيرتها في الحياة، كان في ذلك اختلال حال غيرها، ممّا يحيط بها من الأسباب الكونية المرتبطة بها. وينعكس إليها أثرها السيئ، الذي لا مسبّب لها إلاّ انحرافها عن الصراط وتوجيهها آثاراً سيئة من نفسها إلى تلك الأسباب. وعند ذلك تظهر اختلالات في المجتمع، ومحن عامّة في العلاقات التي تحكمه، كفساد الأخلاق وقسوة القلب وفقدان العواطف الرقيقة وهجوم النوائب، وتراكم المصائب والبلايا الكونية، كامتناع السماء من أن تمطر، والأرض من أن تنبت، والبركات من أن تنزل، ومفاجأة السيول والطوفانات والصواعق والزلازل وخسف البقاع وغير ذلك، كلّ ذلك آيات إلهية تنبّه الإنسان، وتدعو الأمّة إلى الرجوع إلى ربّها، والعودة إلى ما تركته من صراط الفطرة المستقيم، وامتحان بالعسر بعدما امتحن باليسر.

تأمّل في قوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1] تراه شاهداً ناطقاً بذلك، فالآية تذكر أنّ المظالم والذنوب التي تكسبها أيدي الناس توجب فساداً في البرّ والبحر، ممّا يعود إلى الإنسان، كوقوع الحروب وانقطاع الطرق وارتفاع الأمن وغير ذلك، أو لا يعود إليه كاختلال الأوضاع الجوية

---

(١) الروم: ٤١.

والأرضية التي يستضرّ بها الإنسان في حياته ومعاشه»[١].

والمتأمّل في الحوادث التي تقع في العقود الأخيرة، سواء على مستوى الحروب وزيادة الأمراض، خصوصاً تلك التي لم يعهدها السابقون، كما أشارت إلى ذلك روايات سابقة، أم على مستوى الكوارث الطبيعية، يجد شاهد صدق على هذه الحقيقة القرآنية.

والدليل الذي أقامه القرآن لإثبات هذه الحقيقة «قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[٣]، حيث دلّتا أنّ صانعاً من الصنّاع لو صنع شيئاً لغاية معيّنة، كان مراقباً لأمره، شاهداً على رأسه، بنحو إذا عرضه عارض يعوقه ويمنعه عن الوصول إلى الغاية التي صنعه لأجلها، وركّب أجزاءه للوصول إليها، أصلح حاله وتعرّض لشأنه بزيادة أو نقيصة، أو بإبطاله من رأس، والعود إلى صنعة جديدة.

كذلك الحال في خلق السموات والأرض وما بينهما ومن جملتها الإنسان، لم يخلق الله سبحانه ما خلقه عبثاً ولم يوجده هباءً، بل للرجوع إليه كما قال تعالى:﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَتُرْجَعُونَ**﴾[٤]،

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٨ ص١٩٦ ، بتصرّف.

(٢) الدخان: ٣.

(٣) ص: ٢٧.

(٤) المؤمنون: ١١٥.

«حيث دلّت الآية أنّه لو لم يكن هناك رجوع إليه تعالى، لكان خلقهم عبثاً ولعباً، وهو يقول: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ**﴾. حينئذ من الضروري أن تتعلّق العناية الربّانية بإيصال الإنسان، كسائر ما خلق من خلق إلى الغاية التي من أجلها خُلق؛ بالدعوة والإرشاد، ثمّ بالامتحان والابتلاء، ثمّ بإهلاك مَن بطل في حقّه غاية الخلقة وسقطت عنه الهداية. فإنّ في ذلك إتقاناً للصنع في الفرد والنوع، وختماً للأمر في أمة وإراحةَ لآخرين، قال تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾[1]. (تدبّر في موضع قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾ حيث جعلت أن الرحمة الإلهية هي السبب في استبدال قوم بآخرين).

وهذه السنّة الربّانية ، أعني سنّة الابتلاء والانتقام هي التي أخبر الله عنها، أنّها سنّة غير مغلوبة ولا مقهورة، بل غالبة منصورة، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** (الصافات: ١٧٣)﴾»[3].

---

(١) الأنعام: ١٣٣.

(٢) الشورى: ٣١.

(٣) الميزان، ج٢ ص١٨٤.

الخارج والمحتوى الداخلي

تبيّن ممّا تقدّم أنّ التدبير الإلهي الحكيم يسوق الإنسان وكلّ ما يحيط به وخلق لأجله ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**﴾[١]إلى الغاية النهائية التي قدّرت لها ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[٢]فإذا عرض لهذا السير مانع يوجب الإعاقة عن الهدف ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾[٣] قوبل ذلك بما يدفع العائق المذكور، إمّا بإصلاحه، أو إزالة الجزء الفاسد منه، نظير العاهة التي تعرض بعض أجزاء البدن، فإنّه إمّا أن يصلح إن أمكن أو يقطع ويجتثّ بعملية جراحية.

كذلك في النظام العام الذي يحكم عالم التكوين، فإنّ الأُمّة إن رجعت إلى صراط الفطرة والعبودية لله تعالى، بإصلاح نفسها، فيغيّر الله حالها إلى أحسن الحال، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٤].

«حيث يمكن أن يستفاد من الآية العموم، وهو أن بين حالات الإنسان النفسية وبين الأوضاع الخارجية نوع تلازم، سواء كان ذلك في جانب الخير أو الشرّ. فلو كان القوم على الإيمان والطاعة وشكر النعمة، عمّهم الله بنعمه الظاهرة

---

(١) الجاثية: ١٣.

(٢) طه: ٥٠.

(٣) النجم: ٤٢.

(٤) الرعد: ١١.

والباطنة ودام ذلك عليهم حتى يغيّروا، فيكفروا ويفسقوا، فيغيّر الله نعمه نقماً، ودام ذلك عليهم حتى يغيّروا، فيؤمنوا ويطيعوا ويشكروا، فيغيّر الله نقمه نعماً، وهكذا»[١].

أمّا إذا استمرّت الأمّة على ضلالها وخبطها، طبع الله على قلوبهم فاعتادوا ذلك، وأصبحوا يحسبون أنّ الحياة الإنسانية ليست إلاّ هذه الحياة المضطربة الشقيّة التي تزاحمها أجزاء العالم الماديّ، وتضطهدها النوائب والرزايا، ويحطّمها قهر الطبيعة الكونية.

من هنا حاول الإنسان أن يتسلّح بسلاح العلم، ليدفع قهر الطبيعة وحوادثها، بدل أن يرجع إلى نفسه، ليرى ما هي تلك الأسباب الحقيقية التي أدّت بالطبيعة أن تنتفض عليه، وتحوّل حياته إلى شقاء مستمرّ واضطراب وقلق دائم، فبدل أن يرجع إلى استقامة الطريق ﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً**﴾[٢] وان تكون هذه المحن والمصائب والبلايا منبّهات للرجوع إليه تعالى: ﴿**لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[٣] تراه قد أخذه الخيلاء والتكبّر ﴿**اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً**﴾[٤] فظنَّ أنّ التقدّم العلمي في مجالات الحياة المختلفة، يجعله قادراً في التغلب على السنن الإلهية

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج١١، ص٣١١.

(٢) الجن: ١٦.

(٣) الروم: ٤١.

(٤) فاطر: ٤٣.

التي أودعها الله تعالى في النظام الكوني، فتكون الطبيعة منقادة لأهوائه، ونسي أنّه لو اتبعته لفسدت السموات والأرض، ولكان الإنسان من أقدم أجزائها في الفساد وأسرعها في الهلاك، قال تعالى: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّموَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ**﴾[1].

قال الطباطبائي في ظل هذه الآية:

«إنّ الإنسان حقيقة كونية مرتبطة في وجودها بالكون العام، وله في نوعيته غاية هي سعادته، وقد خطّ له طريق إلى سعادته وكماله، يناله بطيّ الطريق المنصوب إليها، نظير غيره من الأنواع الموجودة، وقد جهّزه الكون العام وخلْقته الخاصة به من القوى والآلات بما يناسب سعادته والطريق المنصوب إليها، وهي الاعتقاد والعمل اللذان ينتهيان به إلى سعادته.

فالطريق التي تنتهي بالإنسان إلى سعادته، أعني الاعتقادات والأعمال الخاصّة، المتوسّطة بينه وبين سعادته، وهي التي تسمّى (الدين). وسنّة الحياة متعيّنة حسب اقتضاء النظام العام الكوني، والنظام الخاص الإنساني الذي نسمّيه الفطرة، وتابعة لذلك، وهذا هو الذي يشير إليه تعالى بقوله: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ**

---

(١) المؤمنون: ٧١.

لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠).

فسنّة الحياة التي تنتهي بسالكها إلى السعادة الإنسانية، طريقة متعيّنة، يقتضيها النظام بالحقّ، وتكشف عنها تجهيزات وجوده بالحقّ، وهذا الحقّ هو القوانين الثابتة غير المتغيّرة التي تحكم النظام الكوني، الذي أحد أجزائه النظام الإنساني، وتدبّره وتسوقه إلى غاياته، وهو الذي قضى به الله سبحانه، فكان حتماً مقضياً.

فلو اتّبع الحق أهواءهم، فاقتضى لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم، لم يكن ذلك إلاّ بتغيّر أجزاء الكون عمّا هي عليه، وتبدّل العلل والأسباب غيرها، وتغيّر الروابط المنتظمة إلى روابط جزافية مختلّة متدافعة، توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم، وفي ذلك فساد السموات والأرض ومن فيهنّ في أنفسها، والتدبير الجاري فيها، لأنّ كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متمايزين، والخلق والأمر متّصلان غير منفصلين»[1].

فتحصّل ممّا تقدّم «أنّ الإنسان كغيره من الأنواع الكونية، مرتبط الوجود بسائر أجزاء الكون المحيطة به، ولأعماله في مسير حياته وسلوكه إلى منزل السعادة، ارتباط بغيره، فإن صلحت (أي الأعمال) للكون، صلحت أجزاء الكون له وفتحت له بركات السماء، وإن فسدت أفسدت

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج١٥ ص٤٦.

الكون، وقابله الكون بالفساد، فإن رجع إلى الصلاح فبها، وإلاّ جرى على فساده، حتى إذا تعرّق (تجذّر) فيه، انتهض عليه الكون وأهلكه بهدم بنيانه وإعفاء أثره، وطهّر الأرض من رجسه»[١].

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٨ ص١٩٨.

دور العلل الطبيعية في
وجود الحوادث الكونية

هنا قد يقال: إنّه إذا كانت أعمال الإنسان من خير وشرّ، هي السبب في وجود البلايا والمصائب والمحن التي تصيب الإنسان، سواء منها ما كان يعود إلى الإنسان، كوقوع الحروب وارتفاع الأمن، أو لا يعود إليه، كاختلال الأوضاع الجويّة والأرضية، وما يصاحبها من الزلازل والأمطار المخرّبة ونحوها، فهذا معناه إبطال دور العوامل والأسباب الطبيعية في وجود تلك الحوادث، وهذا ما لا يمكن قبوله لا عقلاً ولا تجربة، بل هو مخالف لظاهر جملة من الآيات الواردة في المقام.

الجواب عن ذلك: أنّ هذا الكلام ناشئ عن سوء فهم وعدم تدبّر في الحقائق القرآنية، فإنّ القائلين بأنّ الأعمال حسنة كانت أو سيّئة هي التي تستتبع من الحوادث ما يناسبها ويسانخها خيراً أو شرّاً، لا يريدون بقولهم «إبطال العلل الطبيعية وإنكار تأثيرها، ولا تشريك الأعمال الإنسانية مع

العوامل المادية (بنحو يكون لكلّ منهما جزء التأثير) كما أنّ الإلهيين لا يريدون بإثبات الصانع، إبطال قانون العلّية والمعلولية العام، وإثبات الاتفاق والصدفة في الوجود، أو تشريك الصانع مع العلل الطبيعية، واستناد بعض الأمور إليه تعالى، والبعض الآخر إلى تلك العلل.

بل مرادهم إثبات علّة في طول علّة، وعامل معنوي فوق العوامل المادية، وإسناد التأثير إلى كلتا العلّتين، لكن بالترتيب»[١].

وهذا من قبيل ما ذكره القرآن الكريم من إسناد التدبير إلى الله تعالى تارةً حيث قال: ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**﴾[٢]، وإسناد التدبير إلى الملائكة أخرى: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً**﴾[٣]، أو نسب التوفّي إلى الله تعالى مرّة ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾[٤] وإلى ملك الموت أخرى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾[٥]، وإلى الرسل وهم الملائكة ثالثة: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ**﴾[٦].

فإنّ مثل هذه الإسنادات المتعدّدة في الموضوع الواحد ـ وله نظائر كثيرة في القرآن ـ ليست عَرْضية، وإنّما هي طولية، بمعنى أنّ السبب

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٢ ص١٨٣.

(٢) السجدة: ٥.

(٣) النازعات: ٥ .

(٤) الزمر: ٤٢.

(٥) النحل: ٧٠.

(٦) الأنعام: ٦١.

القريب سبب للحادث، والسبب البعيد سبب للسبب. ويمكن تقريب هذه الحقيقة، أعني السببية الطولية من خلال مثال حسّي، «وهي الكتابة التي يكتبها الإنسان بيده وبالقلم، فللكتابة استناد إلى القلم، ثمّ إلى اليد التي توصّلت إلى الكتابة بالقلم، وإلى الإنسان الذي توصّل إليها باليد وبالقلم، والسبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقل بالسببية، من غير أن ينافي بسببيته استناد الكتابة بوجه إلى اليد والقلم»(١).

وإلاّ فإنّ القرآن كما يثبت استناد الحوادث إلى أسبابها المادية والطبيعية، كذلك يصدق استنادها إلى الملائكة، ومن الواضح أنّه ليس لشيء من هذه الأسباب الطولية استقلال قباله تعالى، بنحو إذا استند إلى غيره سبحانه، يكون مانعاً من الاستناد إلى السبب الحقيقي الذي من ورائها ﴿**وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ**﴾(٢)، «على ما يقول به الوثنية من تفويضه تعالى تدبير الأمر إلى الملائكة المقرّبين، فالتوحيد القرآني ينفي الاستقلال عن كلّ شيء من كلّ جهة ﴿**لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً**﴾(٣)»(٤).

كذلك في المقام، فإن استناد الحوادث إلى عللها الطبيعية، لا يمنع من استنادها إلى أسباب معنوية مرتبطة بأفعال الإنسان، في طول هذه العلل،

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٢٠ ص١٨٤.

(٢) البروج: ٢٠.

(٣) الفرقان: ٣.

(٤) الميزان، مصدر سابق، ج٢٠، ص١٨٤.

ولا ينافي توسط هذه الأسباب الطولية في إيجاد تلك الحوادث، من أن تستند إليه تعالى، لأنّه السبب الوحيد لها جميعاً، على ما يقتضيه توحيد الربوبية.

تساؤل مهمّ

في ختام هذا البحث لابدّ من الوقوف على تساؤل، قد يرد في المقام هو: لو كان الأمر كما مرّ، من أنّ السنن الإلهية تقتضي نحواً من التبعية بين أعمال الإنسان خيراً وشرّاً وبين النظام الكوني، بنحو لو جرى المجتمع الإنساني على ما تقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل الصالح لنزلت عليه الخيرات والبركات، ولو أفسدوا أُفسد عليهم ذلك، فلماذا لا ينطبق ذلك على بعض الأمم التي انحرفت عن صراط الفطرة، بل بالعكس فهي منعّمة بالنعم المادية، وتعيش الرفاه والأمن والاستقرار؟

الجواب عن ذلك هو:

أوّلاً: أنّ القرآن الكريم بيّن أنّ الله تعالى لا يؤاخذ الناس بجميع ما كسبوا، بل يذيقهم بعض الذي عملوا، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِيعَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[١].

«أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيّئة،

---

(١) الروم: ٤١.

بل ليذيقهم نفس ما عملوا، وقد ظهر في صورة الوبال، وقوله ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم ومعاصيهم إلى التوحيد والطاعة»[١].

وإنّما كان بعض ما عملوا لا جميعه، لأنّ الله (سبحانه) برحمته يعفو عن كثير. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ**﴾[٣].

والسبب في أنّ الله تعالى يعفو عن كثير ممّا كسبوا، ولا يؤاخذ بها جميعاً، هو أنّه لو فعل ذلك لما ترك عليها من دابّة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً**﴾[٤].

والمراد من قوله ﴿**بِمَا كَسَبُوا**﴾ المعاصي التي ارتكبوها؛ بقرينة المؤاخذة التي هي العذاب، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ**﴾[٥].

«ولا يبعد أن يدّعى أنّ السياق يدلّ على كون المراد بالدابّة، الإنسان فقط من جهة كونه يدبّ ويتحرّك، والمعنى: ولو أخذ الله الناس بظلمهم

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٦ ص١٩٦.

(٢) الشورى: ٣٠.

(٣) الشورى: ٣٤.

(٤) فاطر: ٤٥.

(٥) النحل: ٦١ .

مستمرّاً على المؤاخذة ما ترك على الأرض من إنسان يدبّ ويتحرّك. أمّا جلّ الناس فإنّهم يهلكون بظلمهم، وأمّا الأقلّ النادر وهم الأنبياء والأئمّة المعصومون من الظلم، فهم لا يوجدون؛ لهلاك آبائهم وأُمّهاتهم من قبل»[١].

ثانياً: أنّ من السنن التي أشار إليها القرآن الكريم بالنسبة إلى الأُمم التي خرجت عن صراط العبودية لله تعالى، هي سنّة الاستدراج والإملاء. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَة مِنْ نَبِيّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَة الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٢].

هذه الآيات الكريمة تلخّص سنن الله تعالى في الأمم الغابرة «فتذكر أنّ أكثرهم كانوا فاسقين خارجين عن زيّ العبودية لله تعالى، ولم يفوا بالعهد والميثاق الذي أخذ منهم لأوّل يوم، وتبيّن أنّ ذلك كان هو السبب في وقوعهم في مجرى سنن خاصة إلهية يتبع بعضها بعضاً، وهي:

● أنّ الله سبحانه كان كلّما أرسل إليهم نبيّاً من أنبيائه، يمتحنهم ويختبرهم بالبأساء والضرّاء ، فكانوا يعرضون عن آيات الله التي كانت تدعوهم إلى الرجوع إلى الله والتضرّع والإنابة إليه، ولا ينتبهون بهاتيك

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج١٢ ص٢٨٠ .

(٢) الأعراف: ٩٤ ـ ٩٦.

المنبّهات. وهذه سنّة.

● وإذا لم ينفع ذلك بُدّلت هذه السنّة بسنّة أُخرى، وهي الطبع على قلوبهم بتقسيتها وصرفها عن الحقّ، وجعلها متعلّقة بالشهوات المادية، وزينة الحياة الدنيا وبزخرفها ، وهذه سنّة المكر.

● ثمّ تتبعها سنّة ثالثة، وهي الاستدراج ، وهي بتبديل السيئة حسنة، والنقمة نعمة، والبأساء والضراء سراء، وفي ذلك تقريبهم يوماً فيوماً وساعة فساعة إلى العذاب الإلهي، حتى يأخذهم بغتةً وهم لا يشعرون به، لأنّهم كانوا يرون أنفسهم في مهد الأمن والسلام، فرحين بما عندهم من العلم، وما هو تحت اختيارهم من الوسائل الكافية ـ على زعمهم ـ في دفع ما يهدّدهم بهلاك أو يؤذنهم بالزوال»[1].

أمّا السنّة الأُولى فقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَة مِنْ نَبِيّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**﴾[2] حيث دلّت هذه الآية «أنّ السنّة الإلهية جرت على أنّه كلّما أرسل نبيّاً من الأنبياء إلى قرية من القرى ـ وما يرسلهم إليهم إلاّ ليهديهم سبيل الرشاد ـ ابتلاهم بشيء من الشدائد في النفوس والأموال، رجاء أن يبعثهم ذلك إلى التضرّع إليه سبحانه، ليتمّ بذلك أمر دعوتهم إلى الإيمان بالله والعمل الصالح.

فالابتلاءات والمحن نعْم العون لدعوة الأنبياء، فإنّ الإنسان ما دام على النعمة، شغله ذلك عن التوجّه إلى من أنعمها عليه واستغنى بها، وإذا سلب

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٨ ص١٩٥ .

(٢) الأعراف: ٩٤.

النعمة أحس بالحاجة، ونزلت عليه الذلّة والمسكنة، وعلاه الجزع، فيبعثه ذلك بحسب الفطرة إلى الالتجاء والتضرّع إلى من بيده سدّ خلّته وحاجته، ودفع ذلّته، وهو الله سبحانه، وإن كان لا يشعر به، وإذا نبّه عليه كان من المرجو اهتداؤه إلى الحقّ، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيض**﴾[1].

وأمّا السنّة الثانية فقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[2].

تبديل الشيء شيئاً، وضع الشيء الثاني مكان الشيء الأوّل، والسيئة والحسنة معناهما ظاهر، والمراد بهما ما هما كالشدّة والرخاء، والخوف والأمن، والضراء والسراء (أي مطلق ما يسوء الإنسان من الشدائد وما يسرّه). وقوله ﴿حَتّى عَفَوا﴾ لا يبعد أن يكون من العفو بمعنى إمحاء الأثر، فيكون المراد أنّهم محوا بالحسنة التي أُوتوها آثار السيئة السابقة.

والمعنى المتحصّل من الآية، أنّنا آتيناهم النعم مكان النقم، فاستغرقوا فيها إلى أن نسوا ما كانوا عليه حال الشدّة، وقالوا: إنّ هذه الحسنات وتلك السيئات من عادة الدهر فانتهى بهم إرسال الشدّة ثمّ الرخاء إلى هذه الغاية، وكان ينبغي لهم أن يتذكّروا عند ذلك ويهتدوا إلى مزيد الشكر بعد التضرّع لكنّهم غيّروا الأمر فوضعوا هذه الغاية مكان تلك الغاية التي رضيها لهم

---

(١) حم السجدة: ٥١ .

(٢) الأعراف: ٥٩.

ربّهم، فطبع الله بذلك على قلوبهم فلا يسمعون كلمة الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿**فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ تلويح إلى جهل الإنسان بجريان الأمر الإلهي (والسنّة الإلهية) ولذا كان الأخذ بغتةً وفجأةً من غير أن يشعروا به، وهم يظنّون أنّهم عالمون بمجاري الأمور، وخصوصيات الأسباب، وباستطاعتهم أن يتّقوا ما يهدّدهم من أسباب الهلاك بوسائل دافعة يهديهم إليها العلم، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ (المؤمن: ٨٣)»[١].

وأمّا السنّة الثالثة فقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[٢].

قال الراغب في المفردات:

> سنستدرجهم معناه نأخذهم درجة فدرجة وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها[٣].

فيكون المراد هنا «الاستدناء من الهلاك، وتقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على أنّ هذا التقريب خفيّ غير ظاهر عليهم، بل مستبطن فيما يتلهون فيه من مظاهر الحياة المادّية، فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم، فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتى ليصرفهم التلذّذ

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٨ ص١٩٩.

(٢) الأعراف: ١٨٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن، ص١٦٧، مادة «درج».

بها عن التأمّل في وبال أمرهم، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا**﴾[١].

وببيان آخر، لما انقطع هؤلاء عن ذكر ربّهم، وكذّبوا بآياته، سلبوا اطمئنان القلوب وأمنها، فتشبّثوا بذيل الأسباب التي من دون الله، وعذّبوا باضطراب النفوس وقلق القلوب، وقصور الأسباب وتراكم النوائب، وهم يظنّون أنّ ذلك هي طبيعة الحياة الدنيا، ناسين معنى حقيقة الحياة السعيدة، فلا يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا، فيزدادون عذاباً، وهم يحسبونه زيادة في النعمة، حتى يردوا عذاب الآخرة، وهو أمرّ وأدهى، فهم يُستدرجون في العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربّهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون»[٢].

قال تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٣] وقال: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً**﴾[٤]. وقال: ﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾[٥]، وقال: ﴿**فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**

---

(١) الأعراف: ٩٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٨ ص٣٤٦.

(٣) الرعد: ٢٨.

(٤) طه: ١٢٤.

(٥) آل عمران: ١٧٨.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[(١)].

«حيث نهى الله سبحانه نبيّه (صلّى الله عليه وآله) عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم، أي بكثرتها على ما يعطيه السياق، وعلّل ذلك بأنّ هذه الأموال والأولاد، وهي شاغلة للإنسان لا محالة، ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة، بل من النقمة التي تجرّهم إلى الشقاء، فإنّ الله وهو الذي خوّلهم إيّاها، إنّما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا، وتوفّيهم وهم كافرون.

فإنّ الحياة التي يُعدّها الموجود الحيّ سعادة لنفسه وراحة لذاته، إنّما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها، وهو أن يلتبس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح، من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه، فهذه هي الحياة التي لا موت فيها، والراحة التي لا تعب معها، واللّذة التي لا ألم دونها، وهي الحياة في ولاية الله، قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٢)].

وأمّا من اشتغل بالدنيا وجذبته زينتها من مال وبنين إلى نفسها، وغرّته الآمال والأماني الكاذبة التي تتراءى له منها، واستهوته الشياطين ، فقد وقع في تناقضات القوى البدنية، وتزاحمات اللذائذ المادية، وعذّب أشدّ العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذّته، فمن المشاهد المعاين أنّ الدنيا كلّما زادت إقبالاً على الإنسان، ومتّعته بكثرة الأموال والأولاد، أبعدته عن

---

(١) التوبة: ٥٥.

(٢) يونس: ٦٢.

موقف العبودية، وقرّبته إلى الهلاك وعذاب الروح، فلا يزال يتقلّب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة، فالذي يسمّيه هؤلاء الغافلون سعة العيش، هو بالحقيقة ضنك وضيق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[١].

فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربّه، وانكبابه على الدنيا، يبتغي به سعادة الحياة وراحة النفس ولذّة الروح، أن يعذّب بين أطباق هذه الفتن التي يراها نعماً، ويكفر بربّه بالخروج عن زيّ العبودية، كما قالت الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٢].

وهو الإملاء والاستدراج اللذان ذكرهما الله في قوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣)».[٣]

وقد أشارت آيات سورة «فاطر» إلى جملة هذه السنن الإلهية، الحاكمة في المجتمعات الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ

---

(١) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) التوبة: ٥٥ .

(٣) الميزان، مصدر سابق، ج٩ ص٣٠٨.

تَحْوِيلاً * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّموَاتِ ولاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[١].

---

(١) فاطر: ٤٢ ـ ٤٤.

آثار التقوى في النشأة الأُخرى

أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى الآثار المترتّبة على التقوى في النشأة الأخرى. ولما كان منهج هذه الدراسة قائماً على الاختصار، نحاول الوقوف على فهرست لعناوين الأبحاث التي أشار إليها القرآن في هذا المجال:

● قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَنَهَر * فِي مَقْعَدِ صِدْق عِنْدَ مَلِيك مُقْتَدِر**﴾[1].

قال الرازي «قوله ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْق**﴾ يدلّ على لبث لا يدلّ عليه المجلس، وذلك لأنّ «قعد وجلس» ليسا على ما يظنّ أنّهما بمعنى واحد لا فرق بينهما، بل بينهما فرق، ولكن لا يظهر إلاّ للبارع، والفرق هو أنّ القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاءً»[2].

وقال الطباطبائي : «المراد بالصدق، صدق المتّقين في إيمانهم

---

(١) القمر: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) التفسير الكبير، ج٢٩ ص٨٠.

وعملهم، أضيف إليه المقعد لملابسة ما، ويمكن أن يراد به كون مقامهم وما لهم فيه صدقاً لا يشوبه كذب، فلهم حضور لا غيبة معه، وقرب لا بُعد معه، ونعمة لا نقمة معها، وسرور لا غمّ معه، وبقاء لا فناء معه»[١].

وأمّا قوله: ﴿**عِنْدَ مَلِيك مُقْتَدِر**﴾، المليك صيغة مبالغة للمُلك، والمقتدر القادر العظيم القدرة وهو الله سبحانه. وإنّما قال ﴿**عِنْدَ مَلِيك مُقْتَدِر**﴾ «لأنّ القربة من الملوك لذيذة؛ كلّما كان الملك أشدّ اقتداراً كان المتقرّب منه أشد التذاذاً، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإنّ الملوك يقرّبون من يكون ممّن يحبّونه وممّن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوّه فيغلبونه، والله تعالى **مُقْتَدِر** لا يقرّب أحداً إلاّ بفضله»[٢] فلا يصل إلى هذا المقام إلاّ من أحبّه الله وارتضاه علماً وعملاً.

وفي «مصباح الشريعة»: قال الصادق (عليه السلام) بعد أن ذكر التقوى: **«وفيه جماع كلّ عبادة صالحة، وبه وصل من وصل إلى الدرجات العلى، وبه عاش من عاش بالحياة الطيّبة والأنس الدائم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَنَهَر * فِي مَقْعَدِ صِدْق عِنْدَ مَلِيك مُقْتَدِر﴾»**[٣].

وفي «تأويل الآيات الظاهرة»: «أنّ جابر بن عبدالله قال: كنّا عند رسول

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٩ ص٨٩ .

(٢) التفسير الكبير، ج٢٩ ص٨١ .

(٣) مصباح الشريعة، ص١٦٣، نقلاً من تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، العلاّمة المفسِّر الشيخ محمد بن محمد رضا القمي المشهدي، ج١٢ ص٥٥٢.

الله (صلّى الله عليه وآله) في المسجد، فذكر بعض أصحابه الجنّة، فقال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : **إنّ أوّل أهل الجنّة دخولاً إليها علي بن أبي طالب،** فقال أبو دجانة الأنصاري: يا رسول الله أخبرتنا أنّ الجنّه محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمّتك؟

فقال (صلّى الله عليه وآله) : **بلى يا أبا دجانة، أما علمت أنّ للّه لواءً من نور وعموداً من نور، خلقهما اللّه قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، مكتوب على ذلك اللواء، لا إله إلاّ اللّه، محمّد رسول اللّه، خير البرية آل محمّد، صاحب اللواء علي وهو إمام القوم.**

فقال علي (عليه السلام) : **الحمد للّه الذي هدانا بك يا رسول اللّه وشرّفنا.**

فقال النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : **أبشر يا علي ما من عبد ينتحل مودّتك إلاّ بعثه اللّه معنا يوم القيامة.**

وجاء في رواية أخرى: **يا علي أما علمت أنّه من أحبّنا وانتحل مودّتنا أسكنه اللّه معنا؟** وتلا هذه الآية: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَنَهَر* فِي مَقْعَدِ صِدْق عِنْدَ مَلِيك مُقْتَدِر**﴾[١].

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، السيّد شرف الدين علي الحسيني الاشهرآبادي الغروي، ص٦٠٩، مؤسسة النشر الإسلامي.

دوام الخلّة

● قال تعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾[١].

«الأخلاّء: جمع خليل وهو الصديق، حيث يرفع خلّة صديقه وحاجته، والظاهر أنّ المراد بالأخلاّء المطلق الشامل للمخالّه والتحابّ في الله، كما في مخالّة المتّقين أهل الآخرة، والمخالّة في غيره كما في مخالّة أهل الدنيا، فاستثناء المتّقين متّصل.

والوجه في عداوة الأخلاّء غير المتّقين، أنّ من لوازم المخالّة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهام أموره، فإذا كانت لغير وجه الله، كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد، كما قال تعالى حاكياً عن الظالمين يوم القيامة: ﴿**يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي**﴾[٢]، وأمّا الأخلاّء من المتّقين فإنّ مخالّتهم تتأكّد وتنفعهم يومئذ»[٣].

عن سعد بن معاذ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «**إذا كان يوم القيامة، انقطعت الأرحام، وقلّت الأنساب، وذهبت الأخوّة ، إلاّ الأخوّة في الله، وذلك قوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾**»[٤].

---

(١) الزخرف: ٦٧.

(٢) الفرقان: ٢٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج١٨ ص١٢٠.

(٤) الدرّ المنثور في التفسير المأثور، السيوطي، ج٧ ص٣٨٨، دار الفكر.

عن الحارث عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في خليلين مؤمنين وخليلين كافرين: «**فأمّا الخليلان المؤمنان فتخالاّ حياتهما في طاعة الله تبارك وتعالى، وتباذلا عليها وتوادّا عليها، فمات أحدهما قبل صاحبه، فأراه الله منزله في الجنّة، يشفع لصاحبه. فقال: يا ربّ خليلي فلان. كان يأمرني بطاعتك، ويعينني عليها، وينهاني عن معصيتك، فثبّته على ما ثبّتني عليه من الهدى، حتى تُريه ما أريتني، فيستجيب الله له حتى يلتقيان عند الله عزّوجلّ، فيقول كلّ واحد لصاحبه، جزاك الله من خليل خيراً، كنتَ تأمرني بطاعة الله، وتنهاني عن معصيته.**

وأمّا الكافران، فتخالاّ بمعصية الله وتبادلا عليها، وتوادّا عليها، فمات أحدهما قبل صاحبه، فأراه الله تعالى منزله في النار. فقال: ياربّ خليلي فلان، كان يأمرني بمعصيتك، وينهاني عن طاعتك، فثبّته على ما ثبّتني عليه من المعاصي، حتى تُريه ما أريتني من العذاب، فيلتقيان عند الله يوم القيامة، يقول كلّ واحد منهما لصاحبه: جزاك عنّي من خليل شرّاً، كنت تأمرني بمعصية الله، وتنهاني عن طاعته، قال: ثمّ قرأ: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾»[1].

● قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾[2].

قال الراغب في المفردات: «يقال وَفَدَ القوم يَفِدُ وِفادة وهم وَفْد

---

(١) البرهان في تفسير القرآن، العلاّمة المحدِّث السيّد هاشم البحراني، ج٧ ص١٤٦، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٢) مريم: ٨٥ .

ووفود، وهم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج، ومنه الوافد من الإبل وهو السابق لغيره»[١]. وهذا المعنى الذي ذكره هو المشهور، ومن هنا قيل: «إنّ لفظة الوفد مشعرة بالإكرام والتبجيل حيث آذنت بتشبيه حالة المتّقين بحالة وفود الملوك، وليس المراد حقيقة الوفادة من سائر الحيثيات، لأنّها تتضمّن الانصراف من الموفود عليه، والمتّقون مقيمون أبداً في ثواب ربّهم عزّوجلّ. والكلام على تقدير مضاف، أي إلى كرامة الرحمن أو ثوابه وهو الجنّة أو إلى دار كرامته أو نحو ذلك. وفي اختيار «الرحمن» في هذه الآية شأن، ولعلّه أنّ مساق الكلام فيها لتعداد النعم الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها، فكأنّه قيل: هنا يوم نحشر المتّقين إلى ربّهم الذي غمرهم من قبل برحمته وشملهم برأفته، وحاصله يوم نحشرهم إلى من عوّدهم الرحمة، وفي ذلك من عظيم البشارة ما فيه»[٢].

عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سُئل عن قول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً**﴾.

فقال: **يا علي إنّ الوفد لا يكون إلاّ ركباناً، أولئك رجال اتّقوا الله فأحبّهم الله عزّ ذكره، واختصهم ورضي أعمالهم فسمّاهم المتّقين.**

ثمّ قال له: يا علي، أما والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، إنّهم

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص٥٢٨.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلاّمة الآلوسي البغدادي، ج١٦ ص١٣٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ليخرجون من قبورهم، وإنّ الملائكة لتستقبلهم بنُوق من نوق العزّ، عليها رحائل الذهب مكلّلة بالدرّ والياقوت، وجِلالها الاستبرق والسندس، وخُطُمها جُدُل الأرْجوان، تطير بهم إلى المحشر، مع كلّ رجل منهم ألف مَلَك من قدّامه، وعن يمينه وعن شماله، يزفّونهم زفّاً حتى ينتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم. وعلى باب الجنّه شجرة، إنّ الورقة منها ليستظلّ تحتها ألف رجل من الناس، وعن يمين الشجرة عين مطهّرة مزكيّة.

قال: فيسقون منها شربة، فيطهّر الله بها قلوبهم من الحسد، ويسقط من أبشارهم الشعر، وذلك قول الله عزّوجلّ: وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً[1]. من تلك العين المطهّرة.

قال: ثمّ يصرفون إلى عين أخرى عن يسار الشجرة، فيغتسلون فيها وهي عين الحياة، فلا يموتون أبداً.

قال: ثمّ يوقف بهم قدّام العرش، وقد سلموا من الآفات والأسقام والحرّ والبرد أبداً. قال: فيقول الجبّار جلّ ذكره للملائكة الذين معهم: احشروا أوليائي إلى الجنّة، ولا توقفوهم مع الخلائق، فقد سبق رِضاي عنهم، ووجبت رحمتي لهم، وكيف أُرِيد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيئات؟

قال: فتسوقهم الملائكة إلى الجنّة، فإذا انتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم، ضرب الملائكة الحلقة ضربة، فتصرّ صريراً، فيبلغ صوت صريرها كلّ حوراء أعدّها الله عزّوجلّ لأوليائه في الجنان، فيتباشرن

(١) الإنسان: ٢١ .

بهم إذا سمعن صرير الحلقة، فيقول بعضهم لبعض: قد جاءنا أولياء الله، فيفتح لهم الباب، فيدخلون الجنّة، وتشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين.

فيقُلن مرحباً بكم، فما كان أشدّ شوقنا إليكم، ويقول لهن أولياء الله مثل ذلك»[1].

● قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

● قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[3].

● قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا

---

(١) البرهان في تفسير القرآن، البحراني، ج٥ ص١٤١.

(٢) الدخان: ٥١ ـ ٥٧.

(٣) الزمر: ٧٣ ـ ٧٤.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

عن أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين (عليه السلام) فيما كتب لمحمد بن أبي بكر، ولأهل مصر حين ولاّه في حديث طويل، قال عليه السلام : «**يا عباد الله، إنّ أقرب ما يكون العبد من المغفرة والرحمة حين يعمل لله بطاعته وينصحه في توبته، عليكم بتقوى الله، فإنّها تجمع الخير، ولا خير غيرها، ويدرك بها من الخير ما لايدرك بغيرها، من خير الدنيا وخير الآخرة، قال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾**»[2].

---

(١) ٣٠ ـ ٣٢.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج٤ ص٤٤٤.

طرق تحصيل التقوى

أشار القرآن الكريم والروايات الواردة عن العترة المطهرين، إلى طريقين أساسيين لتحصيل التقوى:

الأوّل: الغايات الأخروية.

الثاني: الحبّ الإلهي.

الطريق الأوّل: الغايات الأخروية

إنّ التدبّر في الآيات القرآنية ينتهي بنا إلى أن من أهمّ المسؤوليات التي اُلقيت على عاتق الأنبياء جميعاً، هي إنذار أممهم من عذاب النار، فيما لو خرجوا عن زيّ العبودية لله تعالى، وتبشيرهم بالجنّة ونعيمها الدائم، فيما لو أطاعوا الله ورسله. والآيات في بيان هذه الحقيقة كثيرة جدّاً. قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾[1]، وقال:

---

(١) البقرة: ٢١٣.

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[١].

وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

هكذا بالنسبة إلى خاتم النبيين (صلّى الله عليه وآله) حيث قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[٣]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[٤]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[٥].

قال الراغب الإصفهاني في المفردات:

«وأبشرتُ الرجل وبشّرته وبشرْته، أخبرته بسارّ بسط بشرة وجهه، وذلك أنّ النفس إذا بشّرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر». وقال: «والإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أنّ البشير إخبار فيه سرور»[٦].

لذا نجد القرآن الكريم عندما يصف المؤمنين يقول عنهم: ﴿تَتَجَافَى

---

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) الأنعام: ٤٨.

(٣) البقرة: ١١٩.

(٤) الفرقان: ٥٦.

(٥) سبأ : ٢٨ .

(٦) المفردات، مادة «بشر» و«نذر».

جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] «والمراد اشتغالهم بدعاء ربّهم في جوف الليل حتى تنام العيون وتسكن الأنفاس، لا خوفاً من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمة الله، ولا طمعاً في ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه ومكره، بل يدعونه خوفاً وطمعاً»[2].

وهذا الطريق هو المأثور عن الأنبياء السابقين فيما ينقل إلينا من الكتب السماوية، ولم يتجاوز القرآن الكريم هذا المسلك ، بل اعتبره طريقاً جيّداً لإصلاح النفس من خلال الترهيب والتحذير من النار والترغيب في الجنّة.

قال تعالى: ﴿**أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾[3]. وقال: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾[4] والباء في «بأنّ» للمقابلة، لذا ورد عن الإمام علي (عليه السلام): «**إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة فلا تبيعوها إلاّ بها**» لا بدراهم معدودة أو رئاسة أو جاه محدود وما إلى ذلك من العناوين الاعتبارية التي نتقاتل

---

(١) السجدة: ١٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١٦ ص٢٦٣.

(٣) السجدة: ١٩ ـ ٢٠.

(٤) التوبة: ١١١.

عليها كلّ صباح ومساء.

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾(١).

ومن كلمات إمام المتّقين عليّ (عليه السلام) في هذا المجال:

- «**ألا وانّي لم أرَ كالجنّة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها**»(٢).
- «**فكفى بالجنّة ثواباً ونوالاً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً**»(٣).
- «**فالجنّة غاية السابقين، والنار غاية المفرّطين**»(٤).

روايات الجنة

من هنا نجد أنّ تلامذة الأئمّة (عليهم السلام) كانوا يطلبون منهم أن يرغّبوهم في الجنّة ويشوّقوهم إليها، أو يخوّفوهم من النار ويحذروهم منها.

فعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله الصادق (عليه السلام) : جعلت فداك يابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) شوّقني إلى الجنّة.

فقال (عليه السلام) : «**يا أبا محمد إنّ من أدنى نعيم الجنّة يوجد**

---

(١) آل عمران: ٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٨.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٣ .

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٥٧ .

ريحها من مسيرة ألف عام من مسافة الدنيا، وإنّ أدنى أهل الجنّة منزلاً لو نزل به أهل الثقلين الجنّ والإنس لوسعهم طعاماً وشراباً ولا ينقص ممّا عنده شيء.

ثمّ أضاف الإمام (عليه السلام) : **وإنّ أيسر أهل الجنّه منزلة من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق، فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهار والأثمار ما شاء الله، ممّا يملأ عينه قرّة وقلبه مسرّه، فإذا شكر الله وحمده، قيل له: ارفع رأسك إلى الحديقة الثانية» وهذا معناه أنّ الشكر سبب لمزيد العطاء الإلهي حتى في الآخرة ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾**[1].

ثمّ أضاف (عليه السلام) : **فيقول أعطني هذه، فيقول الله تبارك وتعالى، إن أعطيتك إيّاها، سألتني غيرها؟ فيقول: ربّي هذه هذه...»** إذ لا حدّ لطمع الإنسان، باعتبار حبّه للكمال المطلق، فكلّما يعطى يريد المزيد.

ثمّ قال (عليه السلام) : **فإذا هو دخلها شكر الله وحمده أيضاً، فإذا شكر الله وحمده، قال: فيقال: افتحوا له باب الجنّة، ويقال له: ارفع رأسك، هذه الحديقة الثالثة، فإذا فتح له باب من الخلد ويرى أضعاف ما كان فيه، قيل: فيقول عند تضاعف مسرّاته: ربي لك الحمد الذي لا يحصى، إذ مننت عليّ بالجنان ونجيتني من النيران».**

قال أبو بصير: فبكيت، ثمّ قلت: جعلت فداك زدني.

---

(١) ابراهيم : ٧.

قال: «**يا أبا محمّد إنّ في الجنّة نهراً في حافّته جوار نابتات إذا مرَّ المؤمن بجارية أعجبته، قلعها وأنبت الله مكانها... فلا ينقص عطاء الله، بل لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، إذ كلّ ما وجد جوع وعطش وطلب وحاجة، يوجد هناك عطاء وجود وكرم** ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(١).

إلى أن يقول أبو بصير: قلت: جعلت فداك، ألهنّ كلام يكلّمن به أهل الجنّة؟ قال (عليه السلام): **نعم، كلام يتكلّمن به لم يسمع الخلائق بمثله، قلت: ما هو؟ قال: يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبؤس، ونحن المقيمات فلا نضعن، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن خُلق لنا وطوبى لمن خُلقنا له، نحن اللواتي لو قرن إحدانا علّق في جوّ السماء لأغشى نوره الأبصار**»(٢).

وفي رواية ليلة المعراج، أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: «**لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة، فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون، لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: ما بالكم قد أمسكتم؟ فقالوا: حتى تجيئنا النفقة، فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا سكت أمسكنا...**»(٣).

---

(١) الرحمن: ٢٩.

(٢) تفسير القمي، ج٢ ص٨٢.

(٣) بحار الأنوار، ج١٨ ص٢٩٢.

وحين استبشر أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بهذا الخبر، وظنّوا أن قصورهم في الجنّة كثيرة، قال لهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «**إيّاكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها**»[1].

روايات النار

كذلك الروايات التي تحدّثت عن النار وآلامها. روى الصدوق بإسناده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: **بينا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ذات يوم قاعداً، إذ أتاه جبرئيل (عليه السلام) وهو كئيب حزين متغيّر اللون، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): يا جبرئيل مالي أراك كئيباً حزيناً؟**

فقال: يا محمّد فكيف لا أكون كذلك وإنّما وضعت منافيخ جهنّم اليوم. فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : وما منافيخ جهنّم يا جبرئيل؟

فقال: إنّ الله تعالى، أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتى احمّرت، ثمّ أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثمّ أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودّت، وهي سوداء مظلمة، فلو أنّ حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على أهل الدنيا لذابت الدنيا من حرّها، ولو أنّ قطرة من الزقّوم والضريع قطرت في شراب أهل الدّنيا، مات أهل الدنيا من نتنها.

---

(١) أمالي الصدوق: ٧٠٤ / ٩٦٨.

قال: فبكى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وبكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكاً فقال: إنّ ربّكما يقرئكما السلام، ويقول: إنّي قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً أعذبكما عليه»[١].

لذا ورد عن الإمام علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «**إنّ ناركم هذه لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم، ولقد أطفيت سبعين مرّة بالماء، ولولا ذلك لما استطاع آدمي أن يطفيها إذا التهبت.. وإنّه لتؤتى بها يوم القيامة حتى توضع على النار، ما يبقى من ملك مقرّب ولا نبي مرسل إلا جثا بركبتيه فزعاً من صرختها**»[٢].

لكن عند المقارنة بين الإنذار والتبشير، نجد أنّ القرآن الكريم يؤكّد على الإنذار، أكثر ممّا يؤكّد على التبشير، حيث ورد في آيات عديدة حصر وظيفة الأنبياء في الإنذار، بخلافه في التبشير، إذ لا نجد ذلك الحصر. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[٣]، وقال: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا**﴾[٤]، وقال: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[٥]، وقال: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ**﴾[٦]، والسبب في ذلك أنّ طباع الناس مختلفة في تأثير هذين السبيلين، «فبعضهم وهو الغالب يغلب

---

(١) علم اليقين في أصول الدين، الفيض الكاشاني، ج٢ ص١٠٣٢، انتشارات بيدار.

(٢) سنن الترمذي، ج٤ ص٧٠٩؛ علم اليقين، ج٢ ص١٠٣٤.

(٣) الرعد: ٧.

(٤) النازعات: ٤٥.

(٥) هود: ١٢.

(٦) فاطر: ٢٣.

على نفسه الخوف، وكلّما فكّر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعدَّ لهم، زاد في نفسه خوفاً ولفرائصه ارتعاداً، ويساق بذلك إلى عبادته تعالى خوفاً منعذابه.

وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكّر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة، زاد رجاءً وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحة طمعاً في المغفرة والجنّة»[1].

وهذا ما نجده واضحاً في كلمات إمام المتّقين علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة:

● قال (عليه السلام) : **«وأمّا أهل المعصية فأنزلهم شرّ دار، وغلّ الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل القطران، ومقطّعات النيران، في عذاب قد اشتدّ حرّه، وباب قد أُطبق على أهله، في نار لها كَلَبٌ ولَجَبٌ ولَهَبٌ ساطع، وقصيف هائل، لا يظعن مقيمها ولا يُفادى أسيرها، لا مدّة للدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى»**[2].

● وقال (عليه السلام) : **«أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه، والعثرة تدميه، والرمضاء تحرقه؟ فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيع حجر وقرين شيطان، أعلمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار خطم بعضها بعضاً لغضبه وإذا زجرها توثّبت بين أبوابها جزعاً من زجراته»**[3].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١١ ص١٥٨ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٩.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة : ١٨٣.

الطريق الثاني: الحبّ الإلهي

يقوم أساس هذا الطريق على حبّ الله تعالى، قال سبحانه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ**﴾[١] «حيث دلّت على أنّ الحبّ يتعلّق بالله تعالى حقيقة ـ خلافاً لمن زعم أنّ الحبّ، وهو وصف شهواني، لا يتعلّق إلاّ بالأمور المادّية، ولا يتعلّق به سبحانه حقيقة ـ وأنّ معنى ما ورد من أنّ الحبّ له تعالى، هو الإطاعة بالايتمار بالأمر والانتهاء عن النهي تجوّزاً.

والآية حجّة ودليل عليهم، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ حُبّاً لله﴾ يدلّ على أنّ حبّه يقبل الاشتداد، وهو في المؤمنين أشدّ منه في المتّخذين لله أنداداً، ولو كان المراد بالحبّ هو الإطاعة مجازاً، كان المعنى: والذين آمنوا أطوع لله، ولم يستقم معنى التفضيل، لأنّ طاعة الأنداد ليست بطاعة عند الله سبحانه، فالمراد بالحبّ معناه الحقيقي.

ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ**﴾[٢] فإنّه ظاهر في أنّ الحبّ المتعلّق بالله والحبّ المتعلّق برسوله والحبّ المتعلّق بالآباء والأبناء والأموال وغيرها، جميعاً من سنخ واحد، لمكان قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ وأفعل التفضيل يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه في أصل المعنى

---

(١) البقرة: ١٦٥.

(٢) التوبة: ٢٥.

واختلافهما من حيث الزيادة والنقصان»[١].

وينشأ هذا الحبّ من المعرفة والعلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وقد سمّى نفسه بأحسن الأسماء ووصف ذاته بكلّ صفة جميلة ﴿**وَلله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾[٢]، ﴿**اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾[٣] «ومن خاصّة النفس الإنسانية أن تنجذب إلى الجميل، فكيف بالجميل على الإطلاق، قال تعالى: ﴿**ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ**﴾[٤]، ثمّ قال: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**﴾[٥]، فأفاد أنّ الخلقة تدور مدار الحسن، وأنّهما متلازمان متصادقان، ثمّ ذكر سبحانه في آيات كثيرة أنّ ما خلَقَه من شيء، آية تدلّ عليه و﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَات لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾[٦]، فليس في الوجود ما لا يدلّ عليه تعالى ولا يحكي شيئاً من جماله وجلاله.

فالأشياء من جهة أنواع خلقها وحسنها، تدلّ على جماله الذي لا يتناهى ويحمده ويثني على حسنه الذي لا يفنى، ومن جهة ما فيها من أنواع النقص والحاجة تدلّ على غناه المطلق، وتسبّح وتنزّه ساحة القدس

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١ ص٤٠٦ .

(٢) الأعراف: ١٨٠.

(٣) طه: ٨ .

(٤) الأنعام: ١٠٢.

(٥) السجدة: ٧ .

(٦) آل عمران: ١٩٠.

والكبرياء، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١].

فهؤلاء يسلكون في معرفة الأشياء من طريق هداهم إليه ربّهم وعرّفها لهم، وهو أنّها آيات له وعلامات لصفات جماله وجلاله، وليس لها من النفسية والأصالة والاستقلال إلا أنّها كمرائي تجلّي بحسنها ما وراءها من الحسن غير المتناهي، وبفقرها وحاجتها ما أحاط بها من الغنى المطلق، وبذلّتها واستكانتها ما فوقها من العزّة والكبرياء، ولا يلبث الناظر إلى الكون بهذه النظرة، دون أن تنجذب نفسه إلى ساحة العزّة والفطرة، ويغشى قلبه من المحبّه الإلهية ما ينسيه نفسه وكلّ شيء، ويمحو رسم الأهواء والأميال النفسانية عن باطنه، ويبدّل فؤاده قلباً سليماً ليس فيه إلاّ الله عزّ اسمه[٢].

﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣]، في الكافي بإسناده عن سفيان بن عيينة قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه»[٤].

وعلى هذا الأساس فكلّما ازداد الإنسان معرفة ازداد إيماناً، وكلّما ازداد إيماناً ازدادت نفسه انجذاباً، فيأخذ الحبّ في الاشتداد «ولا يزال يشتدّ هذا الحبّ ثمّ يشتدّ حتى ينقطع إليه من كلّ شيء، ولا يحبّ إلاّ ربه، ولا يخضع قلبه إلاّ لوجهه، فإنّ هذا العبد لا يعثر بشيء، ولا يقف على شيء

---

(١) الإسراء: ٤٤ .

(٢) الميزان، مصدر سابق، ج١١ ص١٥٩ .

(٣) الشعراء: ٨٩ .

(٤) الميزان، مصدر سابق، ج١٥ ص٢٩٢ .

وعنده شيء من الجمال والحسن إلاّ وجد أنّ ما عنده أنموذج يحكي ما عنده (تعالى) من كمال لا ينفد وجمال لا يتناهى وحسن لا يُحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكلّ ما كان لغيره فهو له، لأنّ كلّ ما سواه آية له، ليس له إلاّ ذلك، والآية لا نفسية لها، وإنّما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحبّ على قلبه ولا يزال يستولي. ولا ينظر إلى شيء إلاّ لأنّه آية من آيات ربّه، وبالجملة فينقطع حبّه عن كلّ شيء إلا ربّه، فلا يحبّ شيئاً إلاّ الله سبحانه وفي الله سبحانه.

حينئذ يتبدّل إدراكه وعلمه، فلا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز الاستقلال، فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس، لأنّهم إنّما ينظرون إلى كلّ شيء من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم.

كذلك الأمر من جهة العمل، فإنّه إذا كان لا يحبّ إلاّ الله، فلا يريد شيئاً إلاّ لله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار ولا يترك ولا ييأس ولا يستوحش ولا يرضى ولا يسخط إلاّ لله وفي الله، فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض، وتتبدّل غاية أفعاله، فإنّه قد كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنّه فضيلة إنسانية، ويحذر الفعل أو الخلق لأنّه رذيلة إنسانية.

أمّا الآن فإنّما يريد وجه ربّه ولا همّ له في فضيلة ولا رذيلة، ولا شغل له بثناء جميل وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة، أو جنّة أو نار، وإنّما همّه ربّه، وزاده ذلّ عبوديته، ودليله حبّه»[١].

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج١ ص٣٧٤.

اتباع النبي

إلاّ أنّ هذا كلّه إنّما هو طريق لوصول العبد السالك إلى مقام يكون محبوباً لله تعالى، لكن ما هو الطريق لأن يكون المحبّ محبوباً له تعالى، كي يكون مصداقاً لقوله: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّة عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّة عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[1]؛ وذلك لأنّ المحبّ إنّما ينجذب إلى محبوبه ليجده ويتمّ بالمحبوب ما للمحبّ من النقص، ولا بشرى للمحبّ أعظم من أن يبشَّر أنّ محبوبه يحبّه، وعند ذلك يتلاقى حبّان ويتعاكس دلالان.

فمثلاً الإنسان إنّما يحبّ الغذاء وينجذب إليه، ليجده ويتمّ به ما يجده في نفسه من النقص الذي يأتيه من الجوع، وكذا يريد لقاء الصديق ليجده ويملك لنفسه الأنس. ولو تأمّلت موارد التعلّقوالحبّ أو قرأت قصص العشّاق والمتولهين على اختلافهم لم تشك في صدق ما ذكرناه.

وهذا ما أجابت عنه الآية المباركة: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾[2]، حيث بيّنت أنّ الطريق إلى أن يصل المحبّ إلى بغيته، هو اتباع النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) وذلك لأنّ الحبّ الحقيقي لشيء يستلزم حبّ جميع ما يتعلّق به «ويوجب الخضوع والتسليم لكلّ ما هو في جانبه. والله سبحانه هو الواحد الأحد الذي يعتمد عليه كلّ شيء في جميع شؤون وجوده، ويبتغي إليه الوسيلة، ويصير إليه كلّ ما دقّ وجلّ.

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) آل عمران: ٣١.

فمن الواجب أن يكون حبّه له بالتديّن له بدين التوحيد وطريق الإسلام على قدر ما يطيقه إدراك الإنسان وشعوره ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾(١). وهذا هو الدين الذي يندب إليه سفراءه، ويدعو إليه أنبياءه ورسله، وخاصّةً دين الإسلام الذي فيه من الإخلاص ما لا إخلاص فوقه، وهو الدين الفطري الذي يختم به الشرائع وطرق النبوّة، كما يختم بصادعه الأنبياء (عليهم السلام). وهذا الذي ذكرناه ممّا لا يرتاب فيه المتدبّر في كلامه تعالى.

وقد عرّف النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله) سبيله الذي سلكه، أنّه هو سبيل التوحيد وطريقة الإخلاص، على ما أمره الله سبحانه حيث قال: ﴿**قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(٢)، فذكر أنّ سبيله الدعوة إلى الله على بصيرة، والإخلاص لله من غير شرك؛ إذن فالدعوة والإخلاص هو صفته (صلّى الله عليه وآله) بالأصالة، وهي موجودة فيمن اقتدى به بالتبع.

ثمّ ذكر الله سبحانه أنّ الشريعة التي شرعها للخاتم (صلّى الله عليه وآله) هي الممثّلة لهذا السبيل، سبيل الدعوة إلى التوحيد والإخلاص من غير شرك، فقال: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِفَاتَّبِعْهَا**﴾(٣). وذكر أيضاً أنّ ذلك السبيل إنّما هو إسلام وتسليم محض لله حيث قال: ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ**

---

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) يوسف: ١٠٨.

(٣) الجاثية: ١٨ .

فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[١]. ثم نسب هذا السبيل إلى نفسه وبيّن أنّه هو الصراط المستقيم فقال: ﴿**وَأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**﴾[٢].

فتبيّن بذلك كلّه أنّ الإسلام ـ وهو الشريعة المشرعة للنبي (صلّى الله عليه وآله) الذي هو مجموع المعارف الأصلية والخلقية والعملية وسيرته في الحياة ـ هو سبيل الإخلاص عند الله سبحانه الذي يعتمد ويبتني على الحبّ، فهو دين الإخلاص وهو دين الحبّ.

والحاصل أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ ـ والله أعلم ـ إن كنتم تريدون أن تخلصوا لله في عبوديتكم بالتأسيس على الحبّ حقيقة، فاتبعوا هذه الشريعة التي هي مبنية على الحبّ الذي يوصل الإنسان إلى الإخلاص والإسلام، وهو الصراط المستقيم الذي يسلك بسالكه إليه تعالى، فإن اتبعتموني في سبيلي وشأنه هذا الشأن، أحبّكم الله وهو أعظم البشارة للمحبّ، وعند ذلك تجدون ما تريدون، وهذا هو الذي يبتغيه محبّ بحبّه»[٣].

ممّا تقدّم يتّضح أنّ تقوى الله سبحانه، تارةً تكون من خلال الخوف من العذاب، فتبعث الإنسان إلى التروك، وهو الزهد في الدنيا للنجاة في الآخرة، فالزاهد من شأنه أن يتجنّب المحرّمات أو ما في معنى الحرام وهو ترك الواجبات، وأخرى تكون من خلال الطمع في الثواب، فتبعثه إلى

---

(١) آل عمران: ٢٠ .

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٣ ص١٥٨، بتصرّف.

الأفعال وهي العبادة في الدنيا بالعمل الصالح لنيل نعم الآخرة والجنّة، فالعابد من شأنه أن يلتزم الواجبات أو ما في معنى الواجب وهو ترك الحرام.

والطريقان معاً إنّما يدعوان إلى الإخلاص للدين لا لربّ الدين، وثالثة تكون من خلال محبّة الله سبحانه فإنّها تطهّر القلب من التعلّق بغيره تعالى، من معبود أو مطلوب كصنم أو ند أو غاية دنيوية، بل ولا مطلوب أخروي كفوز بالجنّة أو خلاص من النار، وهذه المحبّة تقصر القلب في التعلّق به تعالى، وبما ينسب إليه من دين أو نبي أو وليّ وسائر ما يرجع إليه تعالى بوجه، فإنّ من أحبّ شيئاً أحبّ آثاره أيضاً.

وهؤلاء هم العلماء بالله «الذين لا يعبدونه خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه وإنّما يعبدونه لأنّه أهلٌ للعبادة، وذلك لأنّهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا، فعلموا أنّه ربّهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكلّ شيء غيرهم، ويدبّر الأمر وحده، وليسوا هم إلاّ عباد الله فحسب، وليس للعبد إلاّ أن يعبد ربّه، ويقدّم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيء من أعمالهم فعلاً أو تركاً إلاّوجهه الكريم، ولا يلتفتون فيها إلى مقام يخوّفهم، ولا إلى ثواب يرجّيهم، وإن خافوا عذابه ورجوا رحمته.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الطرق لتحصيل التقوى، قال تعالى: ﴿**وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ**

الْغُرُورِ﴾[١].

«دلّت الآية أنّ حقيقة الدنيا أنّها متاع الغرور، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فعليه أن لا يجعلها غاية لأعماله في الحياة، وأن يعلم أنّ له وراءها داراً وهي الدار الآخرة فيها ينال غاية أعماله، وهي عذاب شديد للسيئات يجب أن يخافه ويخاف الله فيه، ومغفرة من الله قبال أعماله الصالحة يجب أن يرجوها ويرجو الله فيها، ورضوان من الله يجب أن يقدّمه على رضا نفسه»[٢].

كذلك يبيّن القرآن أنّ بعض المتّقين إنّما يزهدون في الدنيا لأجل الوصول إلى ما عند الله من الثواب في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَتَعْقِلُونَ**﴾[٣]، لكن عندما يأتي إلى طبقة أخرى يقول في حقّهم، إنّهم يريدون ويطلبون الله تعالى، لا ما عند الله، قال تعالى: ﴿**وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾[٤].

والروايات الواردة في هذا المجال، متعدّدة:

● عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «**العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا اللّه عزّوجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا اللّه تبارك وتعالى طلب**

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) الميزان، مصدر سابق، ج١١ ص١٥٨ .

(٣) القصص: ٦٠.

(٤) طه: ٧٣ .

الثواب فتلك عبادة الأُجراء، وقوم عبدوا اللّه حبّاً فتلك عبادة الاحرار وهي أفضل العبادة»[١].

● عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «**إنّ الناس يعبدون اللّه عزّوجلّ على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبةً في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فَرَقاً من النار، فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عزّوجلّ، فتلك عبادة الكرام وهو الأمن، لقوله عزّوجلّ: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾**[٢]**، ولقوله عزّوجلّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾**[٣]**، فمن أحبّ اللّه عزّوجلّ، أحبّه اللّه، ومن أحبّه اللّه كان من الآمنين»**[٤].

وفي بعض الروايات أضيف إليها «**وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلاّالمطهّرون**»[٥].

● عن الإمام السجّاد (عليه السلام) قال: «**إنّي أكره أن أعبد اللّه ولا غرض لي إلاّ ثوابه، فأكون كالعبد الطمع المطمع؛ إنْ طمع عمل، وإلاّ لم يعمل، وأكره أن لا أعبده إلاّ لخوف عقابه، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل، قيل: فلِمَ تعبده؟ قال: لما هو أهله بأياديه عليَّ**

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢ ص٨٤ ، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة.

(٢) النمل: ٨٩ .

(٣) آل عمران: ٣١.

(٤) تسنيم، تفسير القرآن الكريم: المفسّر الحكيم آية الله جوادي آملي، ج١ ص٤٥١. بالفارسية.

(٥) الميزان في تفسير القرآن، ج١ ص٣٨ .

وإنعامه»[١].

● إلاّ أنّ هناك رواية عبّرت بـ «شكراً» بدل «حبّاً». عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: **«إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»**[٢].

والسبب في توصيفهم (عليهم السلام) عبادة الأحرار تارةً بالحبّ وأخرى بالشكر «لكون مرجعهما واحداً، فإنّ الشكر وضع الشيء المنعم به في محلّه، والعبادة شكرها أن تكون لله الذي يستحقّها لذاته، فيعبد الله لأنّه الله، أي لأنّه مستجمع لجميع صفات الجمال والجلال بذاته، فهو الجميل بذاته، المحبوب لذاته، فليس الحبّ إلاّ الميل إلى الجمال والانجذاب نحوه، فقولنا فيه تعالى هو معبود لأنّه هو، ومعبود لأنّه جميل محبوب، ومعبود لأنّه منعم مشكور بالعبادة، يرجع جميعها إلى معنىً واحد»[٣].

ببيان آخر: «الشاكرون هم الذين استقرّت فيهم صفة الشكر على الإطلاق، فلا يمسّون نعمة إلاّ بشكر، أي بأن يستعملوها ويتصرّفوا فيها قولاً أو فعلاً على نحو يظهرون به أنّها من عند ربّهم المنعم عليهم، فلا يقبلون على شيء، أعمّ من أنفسهم وغيرهم، إلا وهم على ذكر من ربّهم، قبل أن يمسّوه ومعه وبعده، وأنّه مملوك له تعالى طلقاً، ليس له من الأمر

---

(١) تسنيم، مصدر سابق، ج١ ص٤٥١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٢٣٧.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج١ ص٣٨.

شيء، فذكرهم ربهم على هذه الوتيرة ينسيهم ذكر غيره إلاّ بالله، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فلو أُعطي اللفظ حقّ معناه، لكان الشاكرون هم المخلصين»[١].

ولا شكّ أنّ الإخلاص لا يتحقّق إلاّ إذا لم يتعلّق قلب الإنسان بغيره تعالى، ولا طريق لذلك إلاّ من خلال المحبّة الإلهية التي تطهّر القلب عن كلّ ما سواه. قال الإمام الصادق (عليه السلام) في ظل هذه الآية المباركة ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾[٢]: «**يطهّرهم عن كلّ شيء سوى الله**»[٣].

قال الطباطبائي: «وهؤلاء هم المقرّبون الفائزون بقربه تعالى، إذ لا يحول بينهم وبين ربّهم ممّا يقع عليه الحسّ أو يتعلّق به الوهم أو تهواه النفس أو يلبسه الشيطان، فإنّ كلّ ما يتراءى لهم ليس إلاّ آية كاشفة عن الحقّ المتعال، لا حجاباً ساتراً، فيفيض عليهم ربّهم علم اليقين، ويكشف لهم عمّا عنده من الحقائق المستورة عن هذه الأعين المادّية العميّة، بعدما يرفع الستر فيما بينه وبينهم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿**كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾[١].

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٨ ص٣٣.

(٢) الإنسان: ٢١ .

(٣) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج٥ ص٢٦٥، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

(٤) المطففين: ٢١ .

المجتبون

وبالجملة هؤلاء في الحقيقة هم المتوكّلون على الله، المفوّضون إليه، الراضون بقضائه، المسلّمون لأمره، إذ لا يرون إلاّ خيراً، ولا يشاهدون إلاّجميلاً، فيستقرّ في نفوسهم من الملكات الشريفة والأخلاق الكريمة ما يلائم هذا التوحيد، فهم مخلصون لله في أخلاقهم، كما كانوا مخلصين له في أعمالهم، وهذا معنى إخلاص العبد دينه لله. قال تعالى: **﴿أَلاَ لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾**[٢]. وقال أيضاً: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**[٣]، وقال: **﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**[٤].

وهؤلاء هم الأنبياء والأئمّة (عليهم السلام) وقد نصّ القرآن بأنّ الله اجتباهم أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته، قال تعالى: **﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾**[٥]، وقال: **﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[٦].

وقد تقدّم آنفاً أنّ من خاصّة هؤلاء القوم أنّهم يعلمون من ربّهم ما لا يعلمه غيرهم، والله سبحانه يصدّق ذلك بقوله: **﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ *

---

(١) التكاثر: ٦ .

(٢) الزمر: ٣.

(٣) البيّنة: ٥.

(٤) المؤمن: ٦٥.

(٥) الأنعام: ٨٧ .

(٦) الحج : ٧٨ .

﴿إلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(١) وأنّ المحبّة الإلهية تبعثهم على أن لا يريدوا إلاّ ما يريده الله، وينصرفوا. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق (عليه السلام) في ظل الرواية الثانية المتقدّمة حيث قال: «**وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلاّالمطهّرون**» وقد بيّن القرآن من هم المطهّرون بقوله: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**(٢). وقد أوضحنا مفصّلاً في كتاب «العصمة» أنّ هذه الآية مختصّة بالنبيّ الأكرم وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهم.

يقول الآلوسي في ظلال هذه الآية: «وأخبار إدخاله صلّى الله عليه وسلّم عليّاً وفاطمة وابنيهما (رضي الله تعالى عنهم) تحت الكساء، وقوله عليه الصلاة والسلام: (**اللّهم هؤلاء أهل بيتي**) ودعائه لهم وعدم إدخال اُمّ سلمة أكثر من أن تحصى، وهي مخصّصة لعموم أهل البيت بأي معنىً كان البيت، فالمراد بهم من شمله الكساء ولا يدخل فيهم أزواجه»(٣).

وقال الرازي في ظل قوله تعالى: **﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾**(٤): «وأنا أقول: آل محمّد صلّى الله عليه وسلّم هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل، كانوا هم الآل، ولا شكّ

---

(١) الصافات: ١٦٠ .

(٢) الأحزاب: ٣٣ .

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلاّمة الآلوسي البغدادي، ج٢٢ ص١٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٤) الشورى: ٢٣.

أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل»[١].

ولا يفهم من هذا أنّ مسلك الحبّ الإلهي محال على الآخرين، بل بإمكان الإنسان المؤمن أن يروّض نفسه من أجل الارتقاء إلى بعض درجاته، فلا يقرأ دعاءً مثلاً ولا يصلّي صلاة ولا يفعل فعلاً ما، ونظره المباشر إلى ثواب تلك الأعمال التي يقوم بها، وإنّما ينظر إلى العمل بذاته وإلى محتواه، وأنّ ما يقوم به هو عبادة لله سبحانه وتعالى قبل كلّ شيء، وهكذا وبتكرار العمل يحصل على الملكات التي تؤهّله لأن يرتقي إلى ما يصبو إليه.

نعم، مقام العصمة والطهارة التي ثبتت لأصحاب الكساء، ممّا لا يمكن نيله لأحد غيرهم (عليهم السلام). قال أمير المؤمنين(عليه السلام)

«لا يقاس بآل محمّد (صلّى اللّه عليه وآله) من هذه الأمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً»[٢].

صحة الطرق

ثمّ إنّه لابدّ أن يعلم أنّ هذه الطرق لتحصيل التقوى، تشترك جميعاً في أنّها تحقّق العبادة الصحيحة، حيث جاء في بعض نصوص الروايات

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، ج٢٧، ص١٦٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة : ٢ .

السابقة، أنّ عبادة الأحرار هي «أفضل العبادة». ولا يخفى أنّ صيغة التفضيل هذه دالّة على أنّ كلاًّ من الوجهين السابقين لهما فضل في الجملة أيضاً، وهذا ما صرّح به بعض المتكلّمين والفقهاء على حدٍّ سواء، قال المجلسي في «مرآة العقول» في ظل هذه الرواية: «وحاصل المعنى أنّ العبادة الصحيحة المترتّبة عليها الثواب والكرامة في الجملة ثلاثة أقسام، وأمّا غيرها كعبادة المرائين ونحوها، فليست بعبادة ولا داخلة في المقسم»[1].

وقال السيّد اليزدي في العروة الوثقى: «ولغايات الامتثال درجات:

أحدها: وهو أعلاها، أن يقصد امتثال أمر الله، لأنّه تعالى أهلٌ للعبادة والطاعة، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: **إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»**.

الثاني: أن يقصد شكر نعمه التي لا تحصى.

الثالث: أن يقصد به تحصيل رضاه والفرار من سخطه.

الرابع: أن يقصد به حصول القربة إليه.

الخامس: أن يقصد به الثواب ورفع العقاب، بأن يكون الداعي إلى

---

(١) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، العلاّمة المجلسي، ج٨ ص٨٦ دار الكتب الإسلاميةُ، ومثله المولى المازندراني في شرحه الجامع لأصول الكافي والروضة ج٨ ص٢٥١، منشورات المكتبة الإسلامية.

امتثال أمره، رجاء ثوابه وتخليصه من النار»[(١)].

نعم إذا نسبت هذه الطرق بعضها إلى بعض، فإنّه ينطبق عليها القاعدة المعروفة «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين» لأنّ أهل طريق الحبّ والشكر يرون أنّ الطريقين ـ أعني: طريق العبادة خوفاً وطريق العبادة طمعاً ـ لا يخلوان من شرك (خفي) فإنّ الذي يعبده تعالى خوفاً من عذابه، يتوسّل به تعالى (أي يجعله وسيلة) إلى دفع العذاب عن نفسه، كما أنّ من يعبده طمعاً في ثوابه، يتوسّل به تعالى إلى الفوز بالنعمة والكرامة، ولو أمكنه الوصول إلى ما يبتغيه من غير أن يعبده، لم يعبده ولا حامَ حول معرفته، وقد تقدّمت الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) **«هل الدين إلاّالحبّ»** وقوله (عليه السلام) في حديث: **«وإني أعبده حبّاً له، وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلاّ المطهّرون»** وإنّما كان أهل الحبّ مطهّرين لتنزّههم عن الأهواء النفسانية والألوان المادّية، فلا يتمّ الإخلاص في العبادة إلاّ من طريق الحبّ»[(٢)].

وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّوَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[(٣)]، حيث دلّت على أنّ أكثر أهل الإيمان هم متلبّسون بنحو من أنحاء الشرك.

لكن قد يقال: كيف يمكن أن يتلبّس إنسان بالشرك والإيمان معاً، مع

---

(١) العروة الوثقى، السيّد اليزدي، كتاب الصلاة، فصل في النيّة.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١١ ص١٥٩ .

(٣) يوسف : ١٠٦.

كونهما صفتين متقابلتين لا تجتمعان في محلّ واحد؟

والجواب: أنّ حقيقة الإيمان بالله والشرك به «هو تعلّق القلب بالله بالخضوع للحقيقة الواجبية، وتعلّق القلب بغيره تعالى ممّا لا يملك شيئاً إلاّ بإذنه تعالى، فإنّ من الجائز أن يتعلّق الإنسان مثلاً بالحياة الدنيا الفانية وزينتها الباطلة، وينسى مع ذلك كلّ حقّ وحقيقة، ومن الجائز أن ينقطع عن كلّ ما يصدّ النفس ويشغلها عن الله سبحانه، ويتوجّه بكلّه إليه، ويذكره ولا يغفل عنه، فلا يركن في ذاته وصفاته إلاّ إليه، ولا يريد إلاّ ما يريده، كالمخلصين من أوليائه تعالى.

وبين المنزلتين مراتب مختلفة بالقرب من أحد الجانبين والبُعد منه، وهي التي يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع، والدليل على ذلك الأخلاق والصفات المتمكّنة في النفوس التي تخالف مقتضى ما تعتقده من حقّ أو باطل، والأعمال الصادرة منها كذلك، ترى من يدّعي الإيمان بالله يخاف وترتعد فرائصه من أي نائبة أو مصيبة تهدّده، وهو يذكر أن لا قوّة إلاّبالله، ويلتمس العزّة والجاه من غيره وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً**﴾[1]، ويقرع كلّ باب يبتغي الرزق، وقد ضمنه الله، ويعصي الله ولا يستحي، وهو يرى أنّ ربّه عليم بما في نفسه، سميع لما يقول، بصير بما يعمل، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلى هذا القياس.

فالمراد من الشرك في بعض مراتبه، الذي يجامع بعض مراتب

---

(١) يونس: ٦٥.

الإيمان، وهو المسمّى باصطلاح فن الأخلاق بالشرك الخفيّ»[١].

فإذا ضممنا إلى هذه الآية ، قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾[٢] ينتج أنّ الشرك نحو من النجاسة، ولا شكّ أنّ القدر المتيقّن منها هي النجاسة المعنوية الباطنية، المعبّر عنها بالخبث وسوء السريرة، أمّا استفادة النجاسة الظاهرية التي هي قذارة حسّية قائمة بالجسم، فهي محلّ تأمّل عند جملة من الأعلام المحقّقين كسيّدنا الشهيد محمد باقر الصدر (قدّس سرّه)، حيث صرّح بعدم إمكان إرادة هذا المعنى من الآية في بحوثه الفقهية[٣]. وهذا ما أشار إليه الراغب في المفردات قال: «النجاسة: القذارة وذلك ضربان : ضربٌ يُدرك بالحاسّة، وضرب يدرك بالبصيرة، والثاني وصَفَ الله تعالى به المشركين، فقال: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**»[٤].

فإذا كان الشرك نحواً من النجاسة المعنوية الملوّثة للباطن والقلب، إذن فهي محتاجة إلى مطهّر يسانخها، وهذا ما جاء في ظل قوله تعالى: ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً**﴾ عن الصادق (عليه السلام) حيث قال: «**يطهّرهم عن كلّ شيء سوى الله**» كما تقدّمت الإشارة إليه.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١١ ص٢٧٦ .

(٢) التوبة: ٢٨ .

(٣) بحوث في شرح العروة الوثقى، محمد باقر الصدر، ج٣ ص٤٦١، مطبعة الآداب في النجف الأشرف.

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادّة «نجس».

الدفع والرفع

والحاصل أنّ مسلك الحبّ الإلهي «ربّما يدلّ الإنسان المحبّ على أمور لا يستصوبه العقل الاجتماعي الذي هو ملاك الأخلاق الاجتماعية، أو الفهم العام العادي الذي هو أساس التكاليف العامة الدينية، فللعقل أحكام وللحبّ أحكام»[١] لذا قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف المتّقين: **«ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا ، ولقد خالطهم أمر عظيم»**[٢].

وهذا ما عرضنا لبيانه في مبحث مراتب التقوى من هذه الدراسة، حيث قلنا: إنّ الطبقة الأولى تختص بأمور غير موجودة في الطبقتين الأُخريين، ذلك لأنّ ميز طبقتهم وأساسها المحبّة الإلهية دون محبّة النفس.

والسبب في ذلك كلّه أنّ هذا الطريق يقوم على أساس «تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع»[٣].

توضيحه: أنّ طريق تحصيل التقوى وتهذيب النفس، تارة يتمّ من خلال إبداء المانع مع وجود المقتضي، وأخرى من خلال رفع المقتضي، والأوّل هو الدفع والثاني هو الرفع.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١ ص٣٦٠ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة : ١٩٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج١ ص٣٥٨ .

فمثلاً قد يريد الإنسان جاهاً أو عزّاً أو مسلكاً أو سمعةً حسنة في هذه الدنيا، فيتصوّر أنّ بإمكان الله سبحانه إعطاء هذه الأمور له، كما أنّ بإمكان غير الله تبارك وتعالى ذلك. فيميل حسب طبعه إلى ما في أيدي الناس، فيأتيه التحذير بأنّك سوف تخسر وتعذّب يوم القيامة، فيكون العذاب مانعاً عن توجّه النفس إلى ما في أيدي الناس، أو يأتيه الترغيب ، بأنّ هذا الذي ترجوه محدود ومنقطع وزائل، وعليك أن تستبدله بآخر أفضل منه، وهو أجر الآخرة الباقي الدائم الذي عند الله تبارك وتعالى: ﴿**مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاق**﴾[1].

وهذا معناه أنّ المقتضي لتوجّه القلب إلى غير الله موجود، لكن هناك مانع من الترهيب والترغيب يمنعان المقتضي عن التأثير، فيكون من قبيل الورقة المبتلّة بالماء التي لا تحترق بالنار، لا لعدم وجود المقتضي، فاقتضاء الإحراق موجود في النار، بل لوجود المانع وهو البلل.

وهذه هي أهمّ خصوصية في مسلك التهذيب من خلال الغايات الأخروية، وهذا بخلافه في مسلك الحبّ الإلهي، فإنّه يقوم على أساس اقتلاع أصل وجود المقتضي في الإنسان السالك لتوجّه القلب وتعلّقه بغيره تعالى، لا أن يزاحم المقتضي الموجود بالمانع المخوّف أو المرغّب.

وهذا المعنى إنّما يحصل من خلال العلم والمعرفة بالله تعالى، لذا قلنا في بحث سابق: إنّ أهل هذا الطريق يعلمون من ربّهم ما لا يعلمه غيرهم «وإنّ هذا العلم يخالف سائر العلوم في أنّ أثره العملي، وهو صرف

---

(١) النحل: ٩٦ .

الإنسان عمّا لا ينبغي إلى ما ينبغي قطعي غير متخلّف دائماً، بخلاف سائر العلوم، فإنّ الصرْف فيها أكثري غير دائم، قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾[1]. وقال: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾[2]، وقال: ﴿**فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾[3].

ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[4]، وذلك أنّ هؤلاء المخلَصين من الأنبياء والأئمّة (عليهم السلام) قد بيّنوا لنا جمل المعارف المتعلّقة بأسمائه وصفاته من طريق السمع، وقد حصّلنا العلم بها من طريق البرهان أيضاً، والآية مع ذلك تنزّهه عمّا نصفه به، دون ما يصفه به أولئك المخلَصون، فليس إلاّ أنّ العلم الذي يملكونه غير العلم الموجود عند الآخرين، وإن كان متعلّق العلمين واحداً من وجه (بالحمل الأوّلي) . هذا أوّلاً.

وثانياً: إنّ هذا العلم لا يغيّر الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية، ولا يخرجها إلى ساحة الإجبار والاضطرار، كيف والعلم من مبادئ الاختيار، ومجرّد قوّة العلم لا يوجب إلاّ قوّة الإرادة؟ كطالب السلامة إذا أيقن بكون مائع ما سمّاً قاتلاً من حينه، فإنّه يمتنع باختياره من شربه قطعاً، ويشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ**

---

(١) النمل: ١٤ .

(٢) الجاثية: ٢٣.

(٣) الجاثية: ١٧.

(٤) الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠.

مُسْتَقِيم * ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

تفيد الآية أنّهم (عليهم السلام) في إمكانهم أن يشركوا بالله، وإن كان الاجتباء والهدى الإلهي مانعاً عن ذلك. وقوله: ﴿**بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالإنسان المعصوم إنّما ينصرف عن المعصية بنفسه وعن اختياره وإرادته، ونسبة الصرْف إلى عصمته تعالى، كنسبة انصراف غير المعصوم عن المعصية إلى توفيقه تعالى.

ولا ينافي ذلك أيضاً ما يشير إليه كلامه تعالى، وتصرّح به الأخبار، أنّ ذلك من الأنبياء والأئمّة (عليهم السلام) بتسديد من روح القدس، فإنّ النسبة إلى روح القدس كنسبة تسديد المؤمن إلى روح الإيمان ﴿**أُولـئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾[٣] ونسبة الضلال والغواية إلى الشيطان وتسويله، فإنّ شيئاً من ذلك لا يخرج الفعل عن كونه فعلاً صادراً عن فاعله مستنداً إلى اختياره»[٤].

---

(١) الأنعام: ٨٨ .

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، ج١١ ص١٦٣.

بين العصمة والعدالة

وبهذا تمتاز العصمة عن العدالة، فإنّهما معاً وإن كانا يمنعان من صدور المعصية لكن العصمة يمتنع معها الصدور بخلاف العدالة، والسبب في ذلك يرجع إلى سنخ العلم والمعرفة التي يملكها المعصوم، فهو يختلف عن سائر العلوم والإدراكات المتعارفة التي تقبل الاكتساب والتعلّم. من هنا قلنا في بحث سابق : إنّ الفرق بين الطبقة الأولى وبين الطبقتين الأخريين، في نحو العلم والإدراك، دون قوّته وضعفه وتأثيره وعدمه.

بيانه: «أنّ القوى الشعورية المختلفة في الإنسان، يوجب بعضها ذهوله عن حكم البعض الآخر، وضعف التفاته إليه، كما أنّ صاحب ملكة التقوى ما دام شاعراً بفضيلة تقواه، لا يميل إلى اتباع الشهوة غير المرْضيّة، ويجري على مقتضى تقواه، غير أنّ اشتعال نار الشهوة وانجذاب نفسه إلى هذا النحو من الشعور، ربّما حجبه عن تذكّر فضيلة التقوى أو ضعّف شعور التقوى، فلا يلبث دون أن يرتكب ما لا يرتضيه التقوى، ويختار سفاسف الشره، وعلى هذا السبيل سائر الأسباب الشعورية في الإنسان، وإلّافالإنسان لا يحيد عن حكم سبب من هذه الأسباب ما دام السبب قائماً على ساق، ولا مانع يمنع من تأثيره، فجميع هذه التخلّفات تستند إلى مغالبة التقوى والأسباب، وتغلّب بعضها على بعض.

إلاّ أنّ الموهبة التي نسمّيها قوّة العصمة، هي نوع من العلم والشعور يغاير سائر أنواع العلوم في أنّه غير مغلوب لشيء من القوى الشعورية البتة، بل هي الغالبة القاهرة عليها المستخدمة إيّاها، وكذلك كانت تصون

صاحبها من الضلال والخطيئة مطلقاً»[١].

ربما كان هذا العلم الذي يورث الإنسان هذه المناعة أمام أي خروج عن زيّ العبودية لله تعالى، هو الذي عبّر عنه الاصطلاح القرآني باليقين، قال تعالى: **﴿وكَذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾**[٢]، حيث ذكر القرآن أنّ من خواص هذا العلم انكشاف ما وراء ستر الحسّ من حقائق الكون، قال تعالى: **﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾**[٣]. وقد أوضحنا هذه الحقيقة في كتابي «العصمة»[٤]و«بحث حول الإمامة»[٥].

ممّا تقدّم اتضح عدم تمامية ما ذكرته بعض الكتابات المعاصرة، حيث ذهبت إلى «أنّ التقوى والعدالة هما مرتبتان من مراتب العصمة، والعصمة المطلقة هي عبارة عن شدّة ملكة التقوى والعدالة هذه»[٦].

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٥ ص٧٨ ، ص٨٠ .

(٢) الأنعام: ٧٥.

(٣) التكاثر: ٦.

(٤) العصمة: بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني، ص١٣٣، بقلم: محمد القاضي.

(٥) بحث حول الإمامة؛ نص الحوار مع السيّد كمال الحيدري، ص١٦٧، حاوره: جواد علي كسّار.

(٦) فلسفة الوحي والنبوّة، محمد الري شهري، ص٢٣٨، تعريب خالد توفيق.

مسارات تطبيقية

وقد أشار الشيخ الرئيس ابن سينا في الإشارات إلى بعض هذه الطرق للوصول إلى الله تعالى بقوله: «المستحل توسيط الحق مرحوم من وجه (أي جعل الحق واسطة ووسيلة للوصول إلى لذّة الجنّة ونعيمها) فإنّه لم يطعم لذّة البهجة به فيستطعمها، إنّما معارفته مع اللذات المخدجة، فهو حنون إليها غافل عمّا وراءها، وما مَثَله بالقياس إلى العارفين إلاّ مثل الصبيان بالقياس إلى المحنّكين، فإنّهم لما غفلوا عن طيّبات يحرص عليها البالغون، واقتصرت بهم المباشرة على طيّبات اللعب، صاروا يتعجّبون من أهل الجدّ إذا ازورّوا عنها، عائفين لها، عاكفين على غيرها.

كذلك من غضّ النقص بصره عن مطالعة بهجة الحقّ، أعلق كتفيه بما يليه من اللذات، لذّات الزور، فتركها في دنياه عن كُره، وما تركها إلاّليستأجل أضعافها، وإنّما يعبد الله ويطيعه ليخوّله في الآخرة شبعةُ منها، فيبعث إلى مطعم شهي ومشرب هني ومنكح بهي، إذا بُعثر عنه فلا مطمح لبصره في أُولاه وأُخراه إلا إلى لذّات قبقبه وذبذبه، والمستبصر بهداية القدس في شجون الإيثار قد عرف اللّذة الحقّ، وولّى وجهه سمتها، مسترحماً على هذا المأخوذ عن رشده إلى ضدّه، وإن كان ما يتوخّاه بكدّه مبذولاً له بحسب وعده».

قال المحقّق الطوسي في ذيل هذه العبارة:

المُخْدَج: الناقص، يقال: أخدجت الناقة: إذا جاءت بولدها ناقص الخلقة، والولد مخدج.

والحنون: المشتاق.

وحنّكته السن وأحنكته: أي أحكمته التجارب.

وازورّ عنه : أي عدل عنه.

وعاف الطعام والشراب: أي كرهه فلم يتناوله.

وعكف على الشيء: أي أقبل عليه مواظباً.

وخوّله الله الشيء: أي ملّكه إيّاه.

وبعثر عنه: أي كشف عنه.

وطمح بصره إلى الشيء: أي ارتفع.

والقبقب: البطن. والذبذب: الذكر. وقد لاحظ الشيخ فيهما أقوال النبيّ (صلّى الله عليه وآله): من وقي شرّ لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقي. واللقلق: اللسان.

والشجون: جمع شجن، وهو طريق الوادي.

والكد: الشدّة في العمل وطلب الكسب.

والغرض في هذا الفصل تمهيد العذر لمن يجوز أن يجعل الحق (تعالى) واسطة في تحصيل شيء آخر غيره ، وهو ممّن يتزهّد في الدنيا ويعبد الحقّ رغبةً في الثواب أو رهبةً من العقاب، ووجه العذر بيان نقصه في ذاته.

وفي عبارات الشيخ لطائف كثيرة، يتبيّن للمتأمّل فيها:

● منها: وصف اللذّات الحسّية بنقصان الخلقة، وهو نقصان لا يمكن أن يزول.

● ومنها: تشبيه مَن لم يقدر على مطالعة البهجة الحقيقية بالأعمى

الذي يطلب شيئاً، فإنّه يعلّق يده بما يليه، سواء كان ما أعلق به يده مطلوباً أو لم يكن.

● ومنها: التنبيه على أنّ زهد غير العارف زهد عن كُره، مع كونه في صورة الزهّاد أحرص الخلق بالطبع على اللّذات الحسّية، فإنّ التارك شيئاً استأجل أضعافه أقرب إلى الطمع منه إلى القناعة.

● ومنها: نسبة همّته إلى الدناءة والضعة، فإن قوله : «لا مطمح لبصره» مشعر بأنّه أدنى منزلة من أن يستحقّ تلك اللّذات الخسيسة.

● ومنها: التعبير البالغ في تخصيص لذّة البطن والفرج بالذكر.

وقد ذكر في آخر الفصل أنّ هذا الناقص المرحوم، ينال ما يرجوه ويطلبه بكدّه من اللذات الحسّية، حسبما وعده الأنبياء عليهم السلام»[١].

من هنا ذكر الشيخ في موضع آخر، أنّ غرض العارف وغير العارف من الزهد والعبادة متمايزان مختلفان، قال: «الزهد عند غير العارف معاملةٌ مّا، كأنّه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة، وعند العارف تنزّه عمّا يشغل سرّه عن الحقّ، وتكبّر على كلّ شيء غير الحقّ.

والعبادة عند غير العارف معاملة مّا، كأنّه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة هي الأجر والثواب، وعند العارف رياضةٌ ما لهممه وقوى نفسه المتوهّمة والمتخيّلة، ليجرّها بالتعويد عن جناب الغرور إلى جناب الحقّ، فتصير مسالمة للسرّ الباطن حينما يستجلي الحقّ لا ينازعه

---

(١) الإشارات والتنبيهات، ابن سينا، ج٣ ص٣٧٧، مع الشرح للمحقّق الطوسي.

فيخلص السرّ إلى الشروق الساطع، ويصير ذلك ملكة مستقرّة، كلّما شاء السرّ اطّلع إلى نور الحقّ، غير مزاحم من الهمم، بل مع تشييع منها له، فيكون بكليته منخرطاً في تلك القدس».

قال الطوسي في المقام: «الزهد والعبادة من غير العارف معاملتان، فإنّ الزاهد غير العارف يجري مجرى تاجر يشتري متاعاً بمتاع ، والعابد غير العارف يجري مجرى أجير يعمل عملاً لأخذ أُجرة، فالفعلان مختلفان، لكن الغرض واحد.

وأمّا العارف فزهده في الحالة التي يكون فيها متوجّهاً إلى الحقّ، معرضاً عمّا سواه، تنزّه عمّا يشغله عن الحقّ إيثاراً لما قصده، وفي الحالة التي يكون فيها ملتفتاً من الحقّ إلى سواه، تكبّر على كلّ شيء غير الحقّ استحقاراً لما دونه.

وأمّا عبادته، فارتياض لهممه التي هي مبادئ إرادته وعزماته الشهوانية والغضبية وغيرهما، ولقوى نفسه الخيالية والوهمية، ليجرّها جميعاً عن الميل إلى العالم الجسماني والاشتغال به إلى العالم العقلي، مشيّعة إيّاه عند توجّهه إلى ذلك العالم، وتصير تلك القوى معوّدة لذلك التشييع، فلا تنازع العقل ولا تزاحم السرّ حالة المشاهدة، فيخلص العقل إلى ذلك العالم، ويكون جميع ما تحته من الفروع والقوى منخرطة معه في سلك التوجّه إلى ذلك الجناب»[١].

---

(١) المصدر السابق، ج٣ ص٣٧٠.

الفرق بين الزاهد والعابد والعارف

لكن من هو الزاهد والعابد والعارف؟ قال الشيخ في بيان ذلك: «المعرض عن متاع الدنيا وطيّباتها يخصّ باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يخصّ باسم العابد، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت، مستديماً لشروق نور الحقّ في سرّه، يخصّ باسم العارف، وقد يتركّب بعض هذه مع بعض»[(١)].

إلاّ أنّ العارف أيضاً له درجات ومقامات، كما أنّ العابد والزاهد كذلك، لذا قال: «من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني، ومن وجد العرفان كأنّه لا يجده، بل يجد المعروف به فقد خاض لجّة الوصول، وهناك درجات ليست أقلّ من درجات ما قبله، آثرنا فيها الاختصار، فإنّها لا يفهمها الحديث، ولا تشرحها العبارة، ولا يكشف المقال عنها غير الخيال. ومن أحبّ أن يتعرّفها فليتدرّج إلى أن يصير من أهل المشاهدة دون المشافهة، ومن الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر».

وأوضح الطوسي هذا المقطع بقوله: «العرفان حالة للعارف بالقياس إلى المعروف، فهي لا محالة غير المعروف، فمن كان غرضه من العرفان نفس العرفان، فهو ليس من الموحّدين، لأنّه يريد من الحقّ شيئاً غيره، وهذه حالة المتبجّح بزينة ذاته وإن كان بالحقّ.

أمّا من عرف الحقّ وغاب عن ذاته، فهو غائب لا محالة عن العرفان الذي هو لذاته، فهو قد وجد العرفان كأنّه لا يجده، بل يجد المعروف فقط، وهو الخائض لجّة الوصول أي معظمه.

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ص٣٦٩.

وهناك درجات هي درجات التحلية بالأمور الوجودية التي هي النعوت الإلهية، وهي ليست بأقلّ من درجات ما قبله، أعني درجات التزكية من الأمور الخلقية التي تعود إلى الأوصاف العدمية. وذلك لأنّ الإلهيات محيطة غير متناهية، والخلقيات محاط بها متناهية، وإلى هذا أشير في قوله عزّ من قائل: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي...**﴾ فالارتقاء في تلك الدرجات سلوك إلى الله، وفي هذه سلوك في الله، وينتهي السلوكان بالفناء في التوحيد.

واعلم أنّ العبارة عن هذه الدرجات غير ممكنة، لأنّ العبارة موضوعة للمعاني التي يتصوّرها أهل اللغات، ثمّ يحفظونها ثمّ يتذكّرونها ثمّ يتفاهمون بها تعليماً وتعلّماً. أمّا التي لا يصل إليها إلاّ غائب عن ذاته فضلاً عن قوى بدنه، فليس يمكن أن يوضع لها ألفاظ فضلاً عن أن يعبّر عنها بعبارة، وكما أنّ المعقولات لا تدرك بالأوهام، والموهومات لا تدرك بالخيالات، والمتخيّلات لا تدرك بالحواس، كذلك ما من شأنه أن يعاين بعين اليقين فلا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، فالواجب على من يريد ذلك أنّ يجتهد في الوصول إليه بالعيان، دون أن يطلبه بالبرهان.

فهذا بيان ما ذكره الشيخ، واستثنى الخيال في قوله: (ولا يكشف عنها المقال غير الخيال) لما سيبيّن في النمط العاشر، وهو أنّ العارفين إذا اشتغلت ذواتهم بمشاهدة عالم القدس فقد يتراءى في خيالاتهم أمور تحاكي ما يشاهدونه محاكاة بعيدة جدّاً»[1].

---

(١) المصدر السابق، ج٣ ص٣٩٠.

وهذا هو معنى قول العرفاء: «إنّ المكاشفة طور وراء طور العقل»[١].

يقول صدر المتألهين: «لا يجوز في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته، نعم، يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقصر العقل عنه، بمعنى أنّه لا يدرك بمجرّد العقل، ومن لم يفرّق بين ما يحيله العقل وبين ما لا يناله، فهو أخس من أن يخاطب فليترك وجهله»[٢].

وقال أيضاً: «ثمّ إنّ بعض أسرار الدين وأطوار الشرع المبين، بلغ إلى حدّ ما هو خارج عن طور العقل الفكري، وإنّما يعرف بطور الولاية والنبوّة، ونسبة طور العقل ونوره إلى طور الولاية ونورها، كنسبة نور الحس إلى نور الفكر، فليس لميزان الفكر كثير فائدة وتصرّف هناك»[٣].

لذا قال الطباطبائي أنّ: «الذين يحاولون بيان المعاني الشهودية من خلال القوالب اللفظية والعبارات اللغوية، فهم كالذين يريدون بيان الألوان المختلفة للذي ولد من بطن اُمّه أعمى، فيحاول أن يدرك المعاني المرتبطة بالباصرة من خلال القوّة السامعة»[٤].

---

(١) شرح القيصري على فصوص الحكم، الفص الإبراهيمي، ص١٧٩، الفصل العزيري، ص٣٠٤ الطبعة الحجرية.

(٢) الرسائل، صدر الدين الشيرازي، ص٢٨٣، مكتبة المصطفوي قم. ايران.

(٣) شرح أصول الكافي في آخر كتاب مفاتيح الغيب، صدر الدين الشيرازي، ص٤٦١ منشورات مكتبة المحمودي بطهران، الطبعة الحجرية.

(٤) مجموعة مقالات، الطباطبائي، ج١ ص٣٩.

نصوص ودلالات

أختم هذا البحث ببعض كلمات أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) التي بيّنت بعض مقامات العارفين المحبّين:

● ما رواه المسعودي في إثبات الوصية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال في خطبة له: **«فسبحانك ملأت كلّ شيء، وباينت كلّ شيء، فأنت لا يفقدك شيء، وأنت الفعّال لما تشاء، تباركت يا من كل مدرك من خلقه وكلّ محدود من صنعه، ... سبحانك أي عين تقوم نصب بهاء نورك، وترقى إلى نور ضياء قدرتك، وأيّ فهم يفهم ما دون ذلك إلاّ أبصار كشفت عنها الأغطية، وهتكت عنها الحجب العمية، فرّقت أرواحها على أطراف أجنحة الأرواح، فناجوك في أركانك، وولجوا بين أنوار بهائك، ونظروا من مرتقى التربة إلى مستوى كبريائك، فسمّاهم أهل الملكوت زواراً، ودعاهم أهل الجبروت عمّاراً»**[1].

● وفي البحار عن إرشاد الديلمي ـ وذكر بعد ذلك سندين لهذا الحديث ـ وفيه: **«فمن عمل برضائي أُلزمه ثلاث خصال: أعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته، وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفي عليه خاصّة خلقي، وأناجيه في ظُلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأُعرّفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وأُلبسه الحياء حتى**

---

(١) نقلاً من «الميزان في تفسير القرآن» ج٦ ص١٧٥.

يستحي منه الخلق كلهم ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أُخفي عليه شيئاً من جنّة ولا نار، وأعرّفه ما يمرّ على الناس في القيامة من الهول والشدّة، وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهّال والعلماء، وأنومه في قبره وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غمّ الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطلع، ثمّ أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه، ثمّ أضع كتابه عن يمينه فيقرؤه منشوراً، ثمّ لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبّين».[1]

---

(١) المصدر نفسه.

طريق الوصول إلى الحبّ الإلهي

ذكرنا في الأبحاث السابقة، أنّ الطريق يمرّ من خلال معرفة الله سبحانه، وعندما نأتي إلى القرآن الكريم، نجد أنّه يشير إلى نحوين من الطريق إلى ذلك، قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1]، وقال: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾[2].

وهذه هي المعروفة في كلمات العلماء، بالمعرفة الآفاقية والمعرفة الأنفسية.

أمّا الأولى، فالمراد بآيات الآفاق، الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وقد أكثر الله منها في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) الذاريات: ٢١ .

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١]. وقال تعالى: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[٢]، وقال: **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾**[٣].

وأمّا الثانية: وهي الآيات التي في النفوس:

- «منها ما هي في تركّب الأبدان من أعضائها وأعضاء أعضائها، حتى ينتهي إلى البسائط، وما لها من عجائب الأفعال والآثار المتّحدة في عين تكثّرها، المدبّرة جميعاً لمدبّر واحد، وما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب.

- ومنها ما هي من حيث تعلّق النفوس، أعني الأرواح بها (أي الأبدان) كالحواس من البصر والسمع والذوق والشمّ واللمس التي هي الطرق الأوّلية لاطّلاع النفوس على الخارج، لتميّز بذلك الخير من الشرّ، والنافع من الضارّ، لتسعى إلى ما فيه كمالها وتهرب ممّا لا يلائمها، وفي كلّ منها نظام وسيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره، كالبصر لا خبر عنده عمّا يعمله السمع بنظامه الجاري فيه وهكذا، والجميع مع هذا الانفصال

---

(١) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) البقرة: ٢٢ .

(٣) الإسراء: ١٢ .

والتقطع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبِّر واحد، هي النفس المدبّرة والله من ورائهم محيط.

ومن هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس والأبدان، كالقوّة الغضبية والقوّة الشهوية وما لها من اللواحق والفروع، فإنّها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البينونة وانفصال النظام الجاري فيه عن غيره، تحت تدبير مدبِّر واحد، تتعاضد جميع شعبها وتأتلف لخدمته»[١].

أنفعية المعرفة الأنفسية

عند الاحتكام إلى المقارنة المضمونية بين هذين النحوين من المعرفة، نجد أنّ الروايات المستفيضة عن الفريقين تركّز على معرفة النفس الإنسانية، بل في بعضها أنّ **«المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين»** كما جاء عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقد ذكرت في كلمات الأعلام وجوهاً لأنفعية المعرفة الأنفسية على المعرفة الآفاقية، مع اشتراكهما جميعاً في الهداية إلى الإيمان بالله تعالى، والتمسّك بالدين الحقّ والشريعة الإلهية؛ منها:

الوجه الأوّل: «أنّ كون معرفة الآيات نافعة، إنّما هو لأنّ معرفة الآيات بما هي آيات موصلة إلى معرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، ككونه تعالى حيّاً لا يعرضه موت، وقادراً لا يشوبه عجز، وعالماً لا يخالطه جهل، وأنّه تعالى هو الخالق لكلّ شيء، والمالك لكلّ شيء، والربّ القائم

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٨ ص٣٧٣.

على كلّ نفس ما كسبت، خلق الخلق لا لحاجة منه إليهم، بل لينعم عليهم بما استحقوه، ثمّ يجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

هذه وأمثالها معارف حقّة إذا تناولها الإنسان وأتقنها، مُثلت له حقيقة حياته، وأنّها حياة مؤبّدة ذات سعادة دائمة أو شقوة لازمة، وليست بتلك المتهوسة المنقطعة اللاهية اللاغية. وهذا موقف علمي يهدي الإنسان إلى تكاليف ووظائف بالنسبة إلى ربّه، وبالنسبة إلى أبناء نوعه في الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي التي نسمّيها بالدين.

غير أنّ النظر إلى آيات الأنفس أنفع، فإنّه لا يخلو من العثور على ذات النفس وقواها وأدواتها الروحية والبدنية وما يعرضها من الاعتدال في أمرها أو طغيانها أو خمودها، والملكات الفاضلة أو الرذيلة، والأحوال الحسنة أو السيّئة التي تقارنها.

واشتغال الإنسان بمعرفة هذه الأمور والإذعان بما يلزمها من أمن أو خطر، وسعادة أو شقاوة، لا ينفك من أن يعرّفه الداء والدواء من موقف قريب، فيشتغل بإصلاح الفاسد منها، والالتزام بصحيحها، بخلاف النظر في الآيات الآفاقية، فإنّه وإن دعا إلى إصلاح النفس وتطهيرها من سفاسف الأخلاق ورذائلها، وتحليتها بالفضائل الروحية ، لكنه ينادي لذلك من مكان بعيد، وهو ظاهر.

الوجه الثاني: وهو معنى أدقّ مستخرج من نتائج الأبحاث الحقيقية في علم النفس، وهو أنّ النظر في الآيات الآفاقية والمعرفة الحاصلة من ذلك،

نظر فكري وعلم حصولي بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المتجلّية منها، فإنه نظر شهودي وعلم حضوري، والتصديق الفكري يحتاج في تحقّقه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان، وهو باق ما دام الانسان متوجهاً إلى مقدماته، غير ذاهل عنها ولا مشتغل بغيرها، ولذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله، وتكثر فيه الشبهات ويثور فيه الاختلاف.

وهذا بخلاف العلم النفساني بالنفس وقواها وأطوار وجودها، فإنّه من العيان، فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه، وشاهد فقرها إلى ربّها، وحاجتها في جميع أطوار وجودها، وجد أمراً عجيباً، وجد نفسه متعلّقة بالعظمة والكبرياء، متصلة في وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعها وبصرها وإرادتها وحبّها وسائر صفاتها وأفعالها، بما لا يتناهى بهاءً وسناءً وجمالاً وجلالاً وكمالاً من الوجود والحياة والعلم والقدرة وغيرها من كلّ كمال»[1].

وذلك لأنّ البرهان العقلي قائم على أنّ المعلول وكلّ شأن من شؤونه هو عين الفقر والحاجة إلى علّته، فإذا وقف الإنسان على هذه الحقيقة عياناً وشهوداً، فإنّه لا يمكنه إلاّ أن يقف على خالقه وقيومه وهو الحق تعالى، وهذا ما صرّح به القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**[2]، لذا ورد في جملة من الروايات، أنّه لا

---

(١) الميزان، مصدر سابق، ج٦ ص١٧٠.

(٢) فاطر: ١٥.

يمكن معرفة مخلوق إلاّ بالله، قال الصادق (عليه السلام): **«لا يدرك مخلوق شيئاً إلاّ بالله»**[1].

وهذا هو معنى قول الحكماء الإلهيين «إنّ ذوات الأسباب لا تعرف إلاّبأسبابها».

من هنا نفهم لماذا أنّ الإنسان إذا وقف على ملكوت الأشياء، الذي هو وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه وقيامها به، وهو أمر لا يقبل الشركة ويختص به تعالى وحده ﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون**﴾[2] لا يمكن إلاّ أن يحصل له اليقين بحسب الاصطلاح القرآني، وهو العلم الذي لا يشوبه شك، لذا رتّب القرآن حصول اليقين لإبراهيم الخليل (عليه السلام) على إراءته ملكوت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿**وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[3].

---

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص١٤٣، باب صفات الذات وصفات الأفعال، الحديث: ٧.

(٢) يس: ٨٢.

(٣) الأنعام: ٧٥ .

المقاربة الروائية

أشار القرآن إلى هذا المعنى بالنسبة إلى النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) حيث قال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾[١] وقال: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾[٢].

وهذا ما تؤيّده الروايات الواردة في المقام.

● عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) في قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ قال: «**كشط له عن الأرض ومن عليها، وعن السماء وما فيها، والملك الذي يحملها، والعرش ومن عليه، وفعل ذلك برسول الله صلّى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام**»[٣].

● عن ابن مسكان قال: قال أبو عبدالله الصادق (عليه السلام): ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ قال: «**كشط لإبراهيم (عليه السلام) السموات السبع حتى نظر إلى ما فوق العرش، وكشط له الأرض حتى رأى ما في الهواء، وفعل بمحمّد (صلّى الله عليه وآله) مثل ذلك، وإني لأرى صاحبكم والأئمّة من بعده**

---

(١) الإسراء: ١

(٢) النجم: ١٨.

(٣) بحار الأنوار، المجلسي، ج٢٦ ص١١٤، الحديث: ١٣.

قد فعل بهم مثل ذلك»[١].

● عن بريدة الأسلمي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): **«يا علي إنّ اللّه أشهدك معي سبعة مواطن ، حتى ذكر الموطن الثاني، أتاني جبرائيل فأسرى بي إلى السماء فقال: أين أخوك ؟ فقلت: ودّعته خلفي، قال: فقال: فادع اللّه يأتيك به، قال: فدعوت فإذا أنت معي، فكشط لي عن السموات السبع والأرضين السبع، حتى رأيت سكّانها وعمّارها، وموضع كلّ ملك منها، فلم أرَ من ذلك شيئاً إلاّ وقد رأيتَه كما رأيتُه»**[٢].

وكيفما كان إذا وقف الإنسان على حقيقة نفسه بهذا النحو أي عياناً وشهوداً، فقد انكشف له ملكوت نفسه، عند ذلك تنصرف نفسه عن كلّ شيء سوى الله، وتتوجّه إلى ربّها، وتنسى كلّ شيء وتذكر ربّها، حينئذ «يتبدّل إدراك النفس وشعورها، ويهاجر من موطن الشرك إلى موقف العبودية ومقام التوحيد، ولا يزال يعوّض شركاً من توحيد، وتوهّماً من تحقّق، وبُعداً من قرب، واستكباراً شيطانياً من تواضع رحماني، واستغناءً وهمياً من فقر عبودي أن أخذت بيدها العناية الإلهية وساقها سائق التوفيق.

ونحن وإن كان لا يسعنا أن نفقه هذه المعاني حق الفقه لمكان إخلادنا إلى الأرض، واشتغالنا ـ عن الغوص في أغوار هذه الحقائق التي يكشف عنها الدين ويشير إليها الكتاب الإلهي ـ بما لا يغنينا من فضولات هذه

---

(١) المصدر السابق: الحديث: ١٥.

(٢) المصدر السابق، الحديث : ١٦ .

الحياة الفانية التي لا يعرّفها الكلام الإلهي في بيان إلاّ بأنّها لعب ولهو، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾[1]، وقال: ﴿**ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**﴾[2].

إلاّ أنّ الاعتبار الصحيح والبحث البالغ والتدبّر الوافي، يوصلنا إلى التصديق بكليّاتها إجمالاً، وان قصرنا عن إحصاء التفاصيل، والله الهادي»[3].

معرفة الله بالله

«وهذه المعرفة الأحرى بها أن تسمّى بمعرفة الله بالله، وأما المعرفة الفكرية التي يفيدها النظر في الآيات الآفاقية، سواءحصلت من قياس أو حدس أو غير ذلك، فإنّما هي معرفة بصورة ذهنية عن صورة ذهنية، وجلّ الإله أن يحيط به ذهن، أو تساوي ذاته صورة مختلقة اختلقها خلق من خلقه، ولا يحيطون به علماً»[4].

قال الصادق (عليه السلام): «**من زعم أنّه يعرف اللّه بتوهّم القلوب فهو مشرك، ومن زعم أنّه يعرف اللّه بالاسم دون المعنى فقد أقرّ بالطعن، لأنّ الاسم محدث، ومن زعم أنّه يعبد الاسم والمعنى، فقد جعل مع اللّه**

(١) الأنعام: ٣٢

(٢) النجم: ٣٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٦ ص١٦٨.

(٤) الميزان، مصدر سابق، ج٦ ص١٧٢.

شريكاً، ومن زعم أنّه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب، ومن زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير، وما قدروا اللّه حقّ قدره.

قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟

قال (عليه السلام): **باب البحث ممكن وطلب المخرج موجود، إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه.**

قيل: وكيف يعرف عين الشاهد قبل صفته؟

قال (عليه السلام): **تعرفه وتعلمُ علْمَهَ، وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أنّ ما فيه له وبه، كما قالوا ليوسف: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي﴾[1]، فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب»**[2].

بيّن الإمام (عليه السلام) أنّ المعرفة الحقيقية لله تعالى، إنّما تكون بمعرفته أوّلاً. ثمّ معرفة صفاته ثانياً، ثمّ معرفة خلقه من خلال الصفات ثالثاً. وهذا ما أكّدته الروايات الكثيرة الواردة عن أئمّة الهدى عليهم السلام.

- عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«يا من دلّ على ذاته بذاته»**[3].

---

(١) يوسف : ٩٠ .

(٢) تحف العقول عن آل الرسول: ابن شعبة الحرّاني، ص٣٢٦، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين.

(٣) مفاتيح الجنان، الشيخ عبّاس القمّي: دعاء الصباح.

● عن الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام): «**كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المُظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك، ومتى بَعُدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً**»[١].

● عن الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام) : «**بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدرِ ما أنت**»[٢].

● عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام): إنّ الله أجلّ وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون بالله، قال: **صدقت**[٣].

● عن عبد الأعلى عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) قال: «**اسم الله غير الله، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله، فأمّا ما عبّرت الألسن عنه أو عملت الأيدي فيه فهو مخلوق، والله غاية من غاياه، والمغيّى غير الغاية، والغاية موصوفة، وكلّ موصوف مصنوع، وصانع الأشياء غير موصوف بحدّ مسمّى، لم يتكوّن فتعرف كينونته بصنع غيره، ولم يتناه إلى غاية إلاّ كانت غيره، لا يذلّ من فهم هذا الحكم أبداً، وهو التوحيد الخالص، فاعتقدوه وصدّقوه وتفهّموه بإذن**

---

(١) المصدر السابق، دعاء عرفة.

(٢) المصدر السابق، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٣) الأصول من الكافي، ج١ ص١٦٨، كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة، الحديث: ٢.

اللّه عزّوجلّ.

ومن زعم أنّه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك، لأنّ الحجاب والمثال والصورة غيره، وانّما هو واحد موحّد، فكيف يوحِّد من زعم أنّه عرفه بغيره، إنما عرف الله مَنْ عَرَفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعْرفه، وإنّما يعرف غيره»[1].

رؤية تحليلية

قال القاضي سعيد القمّي في بيان بعض فقرات هذا الحديث: «لمّا ظهر من قوله: **(لم يتكوّن فتعرف كينونته بصنع غيره، ولم يتناه إلى غاية إلاّ كانت غيره)** انسداد باب معرفته سبحانه من مُعلّ «أي علّة» فوقه، إذ ليس عزّ شأنه معلولاً لشيء، وكذا (معرفته) من صفة أو اسم يحيط به فيتناهى هو جلّ مجده عندهما، وبقي من طرق معرفة الشيء ثلاثة أنحاء أُخر، نفاها الإمام (عليه السلام) أيضاً، ليثبت أنّه لا يعرف إلاّ به جلّ برهانه:

● فالأوّل من هذه الثلاثة، معرفة الشيء بالحجاب، والمراد به ما يحجب الشيء عن غيره، ويمنع اتصال شيء إليه، وهو هنا عبارة عن الصفات الخصيصة به، والأمور التي يمتاز بها عن غيره».

● والثاني من هذه الثلاثة، معرفة الشيء بالصورة العارضة للشيء، بسبب عروض أية مقولة كانت إيّاه.

---

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص١٤٣، باب صفات الذات وصفات الأفعال، الحديث: ٧.

● والثالث منها، معرفة الشيء بالمثال، وهو عبارة عمّا يماثل الشيء في كلية معنىً من المعاني، سواء كانت أموراً داخلة في الذات أو خارجة عنها.

واستدلّ على أنّه لا يمكن أن يعرف بها ـ وبالجملة يمتنع أن يعرف بغيره تعالى ـ أنّ هذه المعرّفات لا محالة غيره وهو ظاهر، فلو كان له مميّز يحجبه، أو كيفيّة ذاتية يتصوّر بها، أو مفهوم كلّي يصدق عليه وعلى غيره، حتّى يماثله فرد آخر من هذا المفهوم، لكانت هذه الأمور معه تصحبه في أزليته، والله سبحانه واحد أزلاً، موحّد أبداً، فمعرفته بغيره ينافي التوحيد، فكيف يعتقد توحيده من زعم أنّه عرفه بغيره، لأنّ وجود الغير ينافي وحدته سبحانه. فلا يعرف الله أحد سوى من عرفه به.

ثمّ أفاد (عليه السلام) أنّ معرفة الله بغيره إنّما هي معرفة الغير وليست من معرفة الله في شيء، لأنّ المغاير في التعريفات التي للأشياء الممكنة، إنّما يناسبها من وجه ويغايرها من آخر، وليس هذا الشأن للأمور المغايرة له سبحانه، فإنّها مباينة له عزّ شأنه من جميع الوجوه، وإلاّ لزم التركيب المؤذن بالنفر، فالزاعم أنّه عرف الله بغيره لم يعرف الله من وجه أصلاً، وهذا ممّا يقصده القول بأنّ معرفة الشيء بالوجه إنّما هي معرفة الوجه لا الشيء[1].

---

(١) شرح توحيدالصدوق، للعارف الرباني سعيدالقمّي ج٢ ص٤٨٥ راجعه نجفعلي حبيبي.

السبيل ممكن

من هنا سأل السائل في بعض الروايات السابقة «فكيف سبيل التوحيد» قال (عليه السلام): **«إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه»**. بيان ذلك:

«إنّ حقيقة كلّ واحد من الأشياء كائنة ما كانت، هي عينها الموجودة في الخارج، فحقيقة زيد مثلاً هي هذا الوجود الإنساني المتحقّق في الخارج، وهو الذي يتميّز بنفسه عن كلّ شيء، ولا يختلط بغيره، ولا يشتبه شيء من أمره في الخارج مع من سواه. ثمّ إنّا ننتزع منه معاني ناقلين إيّاها إلى أذهاننا، نتعرّف من خلالها حال الأشياء ونتفكّر في أمرها، كمعاني الإنسان وطويل القامة والشاب وأبيض اللون وغير ذلك، وهي معان كلّية إذا اجتمعت وانضمّت ، أفادت نوعاً من التميّز الذهني الذي نقنع به.

وهذه المعاني التي ننالها ونأخذها من العين الخارجية، هي آثار الروابط التي بها ترتبط بنا تلك العين الخارجية نوعاً من الارتباط والاتصال، كما أنّ زيداً مثلاً يرتبط ببصرنا بشكله ولونه، ويرتبط بسمعنا بصوته وكلامه، ويرتبط بأكفّنا ببشرته، فنعقل منه طول القامة، والتكلّم، ولين الجلد ونحو ذلك. فلزيد مثلاً أنواع من الظهور لنا تنتقل بنحو إلينا، وهي المسمّاة بالصفات. وأمّا عين زيد ووجود ذاته في الخارج، فلا تنتقل إلى أفهامنا بوجه، ولا تتجافى عن مكانها، ولا طريق إلى نيلها، إلاّ أن نشهد عينه

الخارجية (عياناً وشهوداً لا مفهوماً وحصولاً) ولا نعقل في أذهاننا إلاّالأوصاف الكلّية.

ومن هذا البيان يظهر أنّا لو شاهدنا عين زيد مثلاً في الخارج، ووجدناه بعينه بوجه شهوداً فهو المعروف الذي ميّزناه حقيقة عن غيره من الأشياء، ووحّدناه واقعاً من غير أن يشتبه بغيره. ثمّ إذا عرفنا صفاته واحدة بعد أُخرى، استكملنا معرفته والعلم بأحواله. وأمّا إذا لم نجده عياناً وشهوداً، وتوسّلنا إلى معرفته بالصفات، لم نعرف منه إلاّ أموراً كلّية، لا توجب له تميّزاً عن غيره، كما لو لم نر زيداً بعينه وإنّما عرفناه بأنّه إنسان أبيض اللون طويل القامة حسن المحاضرة، بقي على الاشتراك مع غيره، حتى نجده بعينه ثمّ نطبّق عليه ما نعرفه من صفاته، وهذا معنى قوله (عليه السلام) : «**إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه**».

ومن هنا يتبيّن أيضاً أنّ توحيد الله سبحانه حقّ توحيده، أن يعرف بعينه أوّلاً، ثمّ تعرف صفاته لتكميل الإيمان به، لا أن يعرف بصفاته وأفعاله، فلا يستوفى حقّ توحيده. وهو تعالى الغني عن كلّ شيء، القائم به كلّ شيء، فصفاته قائمة به، وجميع الأشياء من بركات صفاته، من حياة وعلم وقدرة ومن خلق ورزق وإحياء وتقدير وهداية وتوفيق ونحو ذلك، فالجميع قائم به، مملوك له، محتاج إليه من كلّ جهة.

فالسبيل الحقّ في المعرفة أن يعرف هو أوّلاً، ثمّ تعرف صفاته، ثمّ يعرف بها ما يعرف من خلقه لا بالعكس. ولو عرفناه بغيره، فلم نعرفه بالحقيقة، ولو عرفنا شيئاً من خلقه لا به، بل بغيره فذلك المعروف الذي

عندنا، يكون منفصلاً عنه تعالى، غير مرتبط به، فيكون غير محتاج إليه في هذا المقدار من الوجود ، لذا ورد في بعض الروايات السابقة «لا يدرك مخلوق شيئاً إلاّ بالله». وورد في هذه الرواية «وتعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أنّ ما فيه له وبه» أي تعرف نفسك بالله، لأنّك آثرة من آثاره، لا تستغني عنه في ذهن ولا خارج، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، حتى تثبت نفسك مستغنياً عنه فتثبت إلهاً آخر من دون الله من حيث لا تشعر، وتعلم أنّ ما في نفسك لله وبالله سبحانه لا غنى عنه في حال»[١].

ونعْمَ ما قال الشيخ ابن سينا في هذا المجال، «وإنّه لا حدّ له، ولا برهان عليه، بل هو البرهان على كلّ شيء»[٢].

وبهذا يتّضح سبب تأكيد الروايات على معرفة النفس، وأنّه من عرف نفسه فقد عرف ربّه، وأنّ أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه «لأنّ الإنسان إذا اشتغل بآية نفسه وخلا بها عن غيرها، انقطع إلى ربّه من كلّ شيء، وعقّب ذلك معرفة ربّه معرفة بلا توسيط وسط، وعلماً بلا تسبيب سبب، إذ الانقطاع يرفع كلّ حجاب مضروب، وعند ذلك يذهل الإنسان بمشاهدة ساحة العظمة والكبرياء عن نفسه»[٣]. وهذا ما ورد في مناجاة أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمّة من ولده (عليهم السلام) أنّهم كانوا يدعون

---

(١) حاشية الطباطبائي على تحف العقول، ص٣٢٦.

(٢) الإلهيات من الشفاء، ابن سينا، ص٣٥٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٦ ص١٧٥.

بهذا الدعاء: «**إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تخرق أبصار القلوب حُجُب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك**»[١].

«فتحصّل أنّ النظر في آيات الأنفس أنفس وأغلى قيمة، وأنّه هو المنتج لحقيقة المعرفة فحسب، وعلى هذا فعدّه (عليه السلام) إيّاها أنفع المعرفتين (بل هي أنفع المعارف) لا معرفة متعيّنة، إنّما هو لأنّ العامّة من الناس قاصرون عن نيلها، وقد أطبق الكتاب والسنّة وجرت السيرة الطاهرة النبوية وسيرة أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) على قبول من آمن بالله عن نظر آفاقي، وهو النظر الشائع بين المؤمنين، فالطريقان نافعان جميعاً، لكن النفع في طريق النفس أتمّ وأغزر»[٢].

دور الشرع

نعم يبقى الكلام في كيفية السير في طريق آية النفس، وهل بيّنت الشريعة السُبل للوصول إلى هذا المقام السامي، أم أهملت ذلك، وأوكلت كيفيته إلى السالكين أنفسهم؟

«زعم بعض أنّ كيفية السير من هذا الطريق غير مبيّنة شرعاً، حتى ذكر بعض المصنّفين أنّ هذا الطريق في الإسلام، كطريق الرهبانية التي ابتدعتها النصارى من غير نزول حكم إلهي به، فقبل الله سبحانه ذلك منهم،

(١) مفاتيح الجنان، القمّي، أعمال شهر شعبان العامّة.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٦ ص١٧٢.

قالسبحانه: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾[١] قال: فكذلك طريق معرفة النفس غير واردة في الشريعة، إلاّ أنّها طريقة إلى الكمال مُرضية.

من هنا ربما يوجد عند بعض أهل هذا الطريق وجوه من الرياضات ومسالك مخصوصة، لا تكاد توجد أو لا توجد في مطاوي الكتاب والسنّة، ولم يشاهد في سيرة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والأئمّة من أهل البيت (عليهم السلام). وذلك كلّه بالبناء على ما مرّ ذكره، وأنّ المراد هو العبور والوصْل بأي نحو أمكن بعد حفظ الغاية، وكذلك الطرق المأثورة عن غير المسلمين من متألهي الحكماء وأهل الرياضة، كما هو ظاهر لمن راجع كتبهم، أو الطرق المأثورة عنهم.

لكنّ الحقّ الذي عليه أهل الحقّ، وهو الظاهر من الكتاب والسنّة، أنّ شريعة الإسلام لا تجوّز التوجّه إلى غير الله سبحانه، للسالك إليه تعالى بوجه من الوجوه، والاعتصام بغيره سبحانه، إلاّ بطريق أمر بلزومه وأخذه، وأنّ شريعة الإسلام لم تُهمل مثقال ذرّة من السعادة والشقاوة إلاّ بيّنتها، ولا شيئاً من لوازم السير إلى الله سبحانه يسيراً أو خطيراً إلاّ أوضحتها، فلكلّ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت. قال سبحانه: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل**

---

(١) الحديد: ٢٧.

(٢) النحل: ٨٩ .

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[١]، وقال سبحانه: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾**[٢]، وقال سبحانه: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾**[٣].

والأخبار في هذا المعنى من طريق أهل البيت (عليهم السلام) مستفيضة بل متواترة.

عن أبي حمزة الثمالي (رحمه الله) عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: خطب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في حجّة الوداع فقال: «يا أيّها الناس والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار إلاّ وقد أمرتكم به، وما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنّة إلاّ وقد نهيتكم عنه»[٤].

ممّا تقدّم يظهر أنّ حظّ كلّ امرئ من الكمال بمقدار متابعته للشرع، وقد عرفت أنّ هذا الكمال أمر مشكّك ذو مراتب، ونعم ما قال بعض أهل الكمال، إنّ الميل من متابعة الشرع إلى الرياضات الشاقّة، فرار من الأشقّ إلى الأمهل، فإن اتباع الشرع قتل مستمر للنفس (الهوى) دائمي ما دامت موجودة، والرياضة الشاقّة قتل دفعي، وهو أسهل إيثاراً. وبالجملة فالشرع

---

(١) الروم: ٥٨.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) الأحزاب: ٢١ .

(٤) الأصول من الكافي، ج١ ص٧٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى، ح: ٢.

لم يهمل بيان كيفية السير من طريق النفس»[١].

والتدبّر في الروايات الواردة في العلاقة بينه تعالى وبين خلقه، توصلنا إلى أنّه لا حجاب بينه وبين خلقه. قال الإمام السجّاد علي بن الحسين (عليهما السلام): **«وإنّ الراحل إليك قريب المسافة وإنّك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك»**[٢].

وعن الإمام الكاظم موسى بن جعفر (عليهما السلام): «ليس بينه وبين خلقه حجاب إلاّ خلْقه، فقد احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور»[٣].

«وهذا الحديث الشريف أجمل بيان لأحسن طريق، يبتدئ بالأسباب الواردة شرعاً للانقطاع، من التوبة والإنابة والمحاسبة والمراقبة والصمت والجوع والخلوة والسهر، ويجاهد بالأعمال والعبادات، ويؤيّد ذلك بالفكر والاعتبار، حتى يورث ذلك انقطاعاً منها إلى النفس، وتوجّهاً إلى الحقّ سبحانه، ويطْلع من الغيب طالع، ويعقبه شيء من النفحات الإلهية والجذبات الربانية، ويوجب حبّاً وإشراقاً وذلك هو الذكر. ثمّ لا يزال بارق يلمع، وجذبة تطلع، وشوق يدفع، حتى يتمكّن سلطان الحبّ في القلب، ويستولي الذكر على النفس، فيجمع الله الشمل، ويختم الأمر، وإنّ إلى ربّك المنتهى.

---

(١) رسالة الولاية، العلاّمة الطباطبائي، ص٤٠.

(٢) مفاتيح الجنان، القمي، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٣) الأصول من الكافي، ج١ ص١٠٥، كتاب التوحيد، رسالة الولاية، ص٥٠.

واعلم أنَّ مَثَل هذا السائر الظاعن، مَثَل من يسلك طريقاً قاصداً إلى غاية، فإنّما الواجب عليه أن لا ينسى المقصد، وأن يعرف من الطريق مقدار ما يعبر عنه، وأن يحمل من الزاد قدر ما يحتاج إليه. فلو نسي مقصده آناً ما، هام على وجهه حيران، وضلّ ضلالاً بعيداً **﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾**[(١)]. ولو ألهاه الطريق ومشاهدته ما فيه، بطل السير وحصل الوقوف، ولو زاد حمل الزاد، تعوّق السعي، وفات المقصد»[(٢)].

إضاءات نصّية

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف هذه الطبقة: «**قد أحيى عقله، وأمات نفسه، حتى دقّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرْق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبه وأرضى ربه**»[(٣)].

وفي الختام نورد بعض الكلمات القصار لإمام المتّقين عليّ أمير المؤمنين (عليه السلام) في معرفة النفس، كما وردت في «الغرر والدرر» للآمدي:

---

(١) الحج: ٣١.

(٢) رسالة الولاية، ص٥٠ .

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٠ .

● قال (عليه السلام): **«أعظم الحكمة معرفة الإنسان أمر نفسه»**[(١)].

فإذا ضممنا هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾[(٢)]، يتّضح أنّ من أوضح مصاديق الحكمة هي معرفة النفس، ومن عرفها فقد أُوتي خيراً كثيراً.

● وقال (عليه السلام): **«أكثر الناس معرفة لنفسه أخوفهم لربِّه»**[(٣)].

فإذا ضممناه إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[(٤)] اتضح أنّ من أهمّ طرق الوصول إلى مخافة الله وخشيته هو معرفة النفس، وإذا انتهى الإنسان إلى مقام الحقيقة، فقد انتهى إلى رأس الحكمة، قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): **«رأس الحكمة مخافة اللّه»**[(٥)].

● وقال (عليه السلام): **«أفضل العقل معرفة الإنسان نفسه، فمن عرف نفسه عقل»**[(٦)].

فإذا ضممنا هذا الكلام إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾[(٧)] فالعلم الذي يوصل الإنسان إلى العقل هو علم الإنسان بنفسه، والعقل

---

(١) غرر الحكم و درر الكلم، الحديث: ٣٠٢٦.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

(٣) مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري، ج١١ ص٢٣٦، تحقيق مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث.

(٤) فاطر: ٢٨.

(٥) من لا يحضره الفقيه، ج٤ ص٢٧٢، نقلاً عن مبدأ ومعاد، جوادي آملي: ١٣.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، الحديث: ٣٣٠٦.

(٧) العنكبوت: ٤٣.

يوصل الإنسان إلى الدين، والدين يوصله إلى الجنّة، قال الإمام الصادق (عليه السلام): **«من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنّة»**[١].

ثمّ بيّن (عليه السلام) الآثار المترتّبة على معرفة النفس:

- قال (عليه السلام): **«من عرف نفسه جاهدها»**[٢].
- وقال (عليه السلام): **«من عرف نفسه تجرّد»**.

أي تجرّد عن علائق الدنيا، أو تجرّد عن الناس بالاعتزال عنهم، أو تجرّد عن كلّ شيء بالإخلاص لله»[٣].

- وقال (عليه السلام): **«من عرف نفسه كان لغيره أعرف»**[٤].
- وقال (عليه السلام): **«نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس»**[٥].
- وقال (عليه السلام): **«من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كلّ معرفة وعلم»**[٦].
- وقال (عليه السلام): **«من عرف نفسه جلّ أمره»**[٧].

وأمّا الآثار المترتّبة على الجهل بها:

---

(١) الأصول من الكافي، كتاب العقل والجهل، ج١ ص١١، الحديث: ١١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الحديث: ٧٩٥٧.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٦ ص١٧٤.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الحديث: ٨٨٥٨.

(٥) المصدر السابق، الحديث: ١٠٠٦.

(٦) رسالة الولاية، ص٣٩.

(٧) المصدر نفسه.

- قال (عليه السلام): **«أعظم الجهل، جهل الإنسان أمر نفسه»**[١].
- وقال (عليه السلام): **«عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربّه»**[٢].
- وقال (عليه السلام): **«كفى بالمرء جهلاً أن يجهل نفسه»**[٣].
- وقال (عليه السلام): **«من لم يعرف نفسه، بعُد عن سبيل النجاة وخبط في الضلال والجهالات»**[٤].
- وقال (عليه السلام): **«عجبت لمن ينشد ضالّته، وقد أضلّ نفسه فلا يطلبها»**[٥].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الحديث: ٣٠٢٧.

(٢) المصدر السابق، الحديث: ٦٣٤٤.

(٣) المصدر السابق، الحديث: ٧١١٦.

(٤) المصدر السابق، الحديث: ٩١٣٤.

(٥) رسالة الولاية، ص٣٨ .

صفات المتّقين

● قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولـئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[١].

● وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

● وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : **«قال الله جلَّ جلاله: إذا عصاني من خلقي مَنْ يعرفني، سلّطت عليه من خلقي مَنْ لايعرفني»**[٣].

---

(١) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦.

(٢) القصص: ٨٣ .

(٣) الوافي، الفيض الكاشاني، ج٤ ص٣٠٣، مكتبة الإمام أمير المؤمنين (ع)، اصفهان.

● وعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال:

«**قام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على الصفا فقال: يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، إني رسول الله إليكم وإنّي شفيق عليكم، وإنّ لي عملي ولكلّ رجل منكم عمله، لا تقولوا: إنّ محمّداً منّا وسندخل مدخله، فلا والله ما أوليائي منكم ولا من غيركم يا بني عبد المطّلب إلاّ المتّقون، ألا أفلا أعرفكم يوم القيامة، تأتون تحملون الدنيا على ظهوركم، ويأتون الناس يحملون الآخرة، ألا إنّي قد أعذرت إليكم، فيما بيني وبينكم، وفيما بيني وبين الله عزّوجلّ**»[(١)].

● قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

«**إنّ أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خَشَوا أن يُميتهم، وتركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، ودَرَكَهم لها فَوَتاً، أعداء ما سالَم الناس، وسَلْمُ ما عادى الناس. بهم عُلِمَ الكتاب وبه عُلموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون**»[(٢)].

● وقال (عليه السلام):

«**واعلموا عباد الله أنّ المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة،**

---

(١) الفروع من الكافي، الكليني، ج٨ ص١٨٢، الحديث: ٢٠٥.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة: ٤٣٢.

فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكنت، وأكلوها بأفضل ما أُكلت، ثمّ انقلبوا عنها بالزاد المبْلغ، والمتجر الرابح، أصابوا لذّة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقّنوا أنّهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم وعدة، ولا ينقص لهم نصيب من لذّة»[١].

● وقال (عليه السلام):

«كان لي فيما مضى أخٌ في الله، وكان يُعظّمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتاً، فإن قال بذّ القائلين، ونَقَع غليل السائلين، وكان ضعيفاً مُستضعفاً، فإن جاء الجدّ فهو ليثُ غاب وصلٌّ واد، لا يُدلي بحجّة حتّى يأتي قاضياً، وكان لا يلوم أحداً على ما يجدُ العذر من مثله، حتى يسمع اعتذاره، وكان لا يشكو وجعاً إلاّ عند بُرئه، وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غُلب على الكلام لم يُغلب على السكوت، وكان على ما يسمعُ أحرص منه على أن يتكلّم، وكان إذا بدَهه أمران ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فيخالفه.

فعليكم بهذه الخلائق (جمع خُلق) فالزموها وتنافسوا فيها، فإن لم

---

(١) نهج البلاغة، من عهد له (عليه السلام) إلى محمد بن أبي بكر، حين قلّده مصر: رقم ٢٧.

تستطيعوها فاعلموا أنّ أخذ القليل خيرٌ من ترك الكثير»[١].

● وقال (عليه السلام) عند تلاوته: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[٢]:

«إنّ الله جعل الذكر جِلاءً للقلوب، تسمعُ به بعد الوقْرة، وتُبصر به بعد العَشْوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برِح لله ـ عزّت آلاؤه ـ في البرهة بعد البرهة، وفي أزمات الفترات، عبادٌ ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصحبوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكّرون بأيّام الله، ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلّة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشّروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق، وحذّروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات، وأدلّة تلك الشبهات.

وإنّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بَدَلاً، فلم تشغلهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنه، يقطعون به أيّام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهوْن عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنّما أطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحقّقت القيامة عليهم عِداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون.

---

(١) التنظيم الموضوعي لنهج البلاغة، علي أنصاريان، ج٢ ص٣٢٢.

(٢) النور: ٣٧.

فلو مثّلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كلّ صغيرة وكبيرة، أُمروا بها فقصّروا عنها، أو نُهوا عنها ففرّطوا فيها، وحمّلوا ثِقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال بها، نشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيباً، يعجّون إلى ربّهم من مقام ندم واعتراف، لرأيت أعلام هدى، ومصابيح دُجى، قد حفّت بهم الملائكة، وتنزّلت عليهم السكينة، وفُتحت لهم أبواب السماء، وأُعدّت لهم مقاعد الكرامات، في مقصد اطّلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم وحمد مقامهم.

رهائن فاقة إلى فضله، وأسارى ذلّة لعظمته، جَرَح طول الأسى قلوبهم، وطولُ البكاء عيونهم، لكلّ باب رغبة إلى الله منهم يُد فارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح، ولا يخيب عليه الراغبون.

فحاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك»[1].

● وقال الإمام أبو جعفر الباقر (عليه السلام):

«يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتّقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر، إلاّ بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلاّ من خير، وكانوا أُمناء عشائرهم في الأشياء.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٢ .

يا جابر: لا تذهبنّ بك المذاهب، حسْب الرجل أن يقول: أحبُّ علياً وأتولاّه، ثمّ لا يكون مع ذلك فعّالاً؟ فلو قال: إنّي أحبُّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، فرسول الله خيرٌ من عليّ ثمّ لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنّته، ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً.

فاتّقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله عزّوجلّ وأكرمهم عليه، أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر والله ما يتقرّب إلى الله تبارك وتعالى إلاّ بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجّة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، وما تنال ولايتنا إلاّ بالعمل والورع»[1].

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢ ص٧٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى، ح: ٣.

الفهارس العامة

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الأعلام
- فهرس المصادر
- فهرس المواضيع

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

١ - الذوات المقدسة

٢ – سائر الأعلام

فهرس المصادر

التي نقلنا عنها مباشرة

١. إحياء علوم الدين، ٦٥
أبو حامد الغزالي دار المعرفة، بيروت – لبنان.

٢. الإشارات والتنبيهات، ١٦٦، ١٦٧ – ١٦٩
تأليف ابن سينا، مع الشرح للمحقّق الطوسي، مكتب نشر الكتاب.

٣. الأُصول العامة للفقه المقارن، ١٣
السيّد محمّد تقي الحكيم، دار الأندلس، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م .

٤. الأُصول من الكافي،١٠، ١٢، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٥، ٢٦، ٤٤، ٥٦، ٦٤، ٦٦، ٨٩، ٩١، ١٨٣، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٢
الشيخ الكليني الرازي، دار صعب ودار التعارف، بيروت ـ لبنان.

٥. الإلهيات من الشفاء، ١٨٨
الشيخ الرئيس ابن سينا، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم – إيران.

٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، .١٥، ١٦، ٢٢، ٦٣، ٦٥، ١٣٤، ١٧٩، ١٨٠
العلامة محمّد باقر المجلسي (١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

٧. بحث حول الإمامة، ١٦٣
نص الحوار مع السيّد كمال الحيدري، حاوره: جواد علي كسّار، مؤسسة دار الصادقين الثقافية، قم – إيران.

٨. بحوث في شرح العروة الوثقى، ١٥٦
محمد باقر الصدر، مطبعة الآداب في النجف الأشرف.

٩. البرهان في تفسير القرآن، ٧٧، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨
العلاّمة المحدِّث السيّد هاشم البحراني، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

١٠. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، ١٢٢
السيّد شرف الدين علي الحسيني الاشهرآبادي الغروي، مؤسسة النشر الإسلامي.

١١. تحف العقول عن آل الرسول، ١٨٢
ابن شعبة الحرّاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم – إيران.

١٢. تسنيم، ١٤٧، ١٤٨
تفسير القرآن الكريم، المفسّر الحكيم آية الله جوادي آملي، (بالفارسية)،

نشر إسراء، قم – ايران.

١٣. تعليقة على نهاية الحكمة، ٩٧
مصباح يزدي، مطبعة سلمان الفارسي ، قم – إيران.

١٤. تفسير الصافي، ١٤٩
المولى الفيض الكاشاني، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

١٥. التفسير الكبير، ٢٠
الإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران.

١٦. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم،٢٨، ٥٣، ٦٤، ٦٥
السيّد حيدر الآملي، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: السيّد محسن الموسوي التبريزي.

١٧. تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، ١٢١
العلاّمة المفسِّر الشيخ محمد بن محمد رضا القمي المشهدي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم – إيران.

١٨. التنظيم الموضوعي لنهج البلاغة، ١٩٩
علي أنصاريان، انتشارات جهان، ايران.

١٩. التوحيد، ٤٥، ١٧٨، ١٨٤، ١٩٢
أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق) (٣٨١هـ) منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

٢٠. جامع السعادات، ٧١
محمد مهدي النراقي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

٢١. جامع أحاديث الشيعة، ١٧
آية الله العظمى البروجردي، مطبعة مهر، قم – ايران.
٢٢. الدرّ المنثور في التفسير المأثور، ١٢٣
السيوطي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

٢٣. الرسائل، ١٧٠
صدر الدين الشيرازي، مكتبة المصطفوي قم – ايران.

٢٤. رسالة الولاية، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ١٩١ – ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦
العلاّمة الطباطبائي، مؤسسة البعثة، قم – ايران.

٢٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٢٥، ١٥٢
العلاّمة الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٢٦. شرح القيصري على فصوص الحكم، الفص الإبراهيمي، ١٦٩
الطبعة الحجرية.

٢٧. شرح توحيدالصدوق،١٨٥
العارف الرباني سعيد القمّي، راجعه نجفعلي حبيبي.

٢٨.شرح جامع لأصول الكافي والروضة، ٣٧، ٤٤، ٩١، ١٥٣، ١٧٠،١٨٨.
محمد صالح المازندراني، من منشورات المكتبة الإسلامية، طهران.

٢٩. العروة الوثقى، ١٥٤
السيّد اليزدي، قم – ايران.

٣٠. العصمة، ١٦٢
بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني، بقلم: محمد القاضي

٣١. علم اليقين في أصول الدين، ١٣٦
الفيض الكاشاني، انتشارات بيدار، ايران.

٣٢. غرر الحكم و درر الكلم،١٩٤، ١٩٥، ١٩٧

٣٣. الفروع من الكافي، ١٩٨
الكليني، دار صعب ودار التعارف، بيروت – لبنان.

٣٤. فلسفة الوحي والنبوّة، ١٦٣
محمد الري شهري، تعريب خالد توفيق.

٣٥. مجموعة مقالات، ١٧٠
العلامة الطباطبائي، مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ايران.

٣٦. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ٨٩
العلاّمة المجلسي، دار الكتب الإسلامية، ايران.

٣٧. مستدرك الوسائل، ١٩٤
ميرزا حسين النوري، تحقيق مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم – ايران.

٣٨. مفاتيح الجنان المعرّب، ١٤، ١٨٣، ١٨٩، ١٩٢
الشيخ عباس القمي، ايران.

٣٩. المفردات في غريب القرآن ٩، ٢٧، ٦٨، ٦٩، ٨٢، ١١٥، ١٢٥، ١٣٠، ١٥٧
أبو القاسم الحسين بن محمّد (الراغب) الإصفهاني (٥٠٢هـ) ـ تحقيق : محمّد سيّد كيلاني .

٤٠. الميزان في تفسير القرآن، ٩، ١٦، ١٨،٢١، ٢٩، ٣٢، ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٦٢، ٦٩، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٨٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨ – ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢١، ١٢٣، ١٣١، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٥ – ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٧، ١٨١، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٥
العلاّمة السيد محمّد حسين الطباطبائي (١٤٠٢هـ)، مؤسسة ومطبعة إسماعيليان ، قم ـ إيران، الطبعة الخامسة، ١٤١٢هـ .

٤١. نهج البلاغة، ٢٣، ٢٤ – ٢٦، ٥٢، ٥٧، ٦٨، ٧١، ٧٦، ١٣٢، ١٣٧، ١٤٨، ١٥٧، ١٩٣، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١
وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ـ شرح : الشيخ محمّد عبده، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١١هـ .

٤٢. الوافي، ١٩٧
الفيض الكاشاني، مكتبة الإمام أمير المؤمنين، اصفهان.

فهرس مواضيع الكتاب